

نحو منهج إسلامي في البلاغة والنقد

(١)

الأسلوبية والنص النبوي الشريف مدخل للدراسة

دكتور

عبد العزيز فتم الله علي عبد الباري

كلية التربية / جامعة عمر المختار
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

الأسلوبية والنص النبوي الشريف

مفهوم الأسلوب :

ثمة تعريف يكاد يكون متفقاً عليه بين المهتمين بأمر الدراسة الأسلوبية . ذلك هو النظر إلى الأسلوب " بوصفه " طريقة التعبير عن الفكر بواسطة اللغة " ^(١) .

وعلى الرغم من أن هذا التعريف يضرب بجذوره إلى كتاب " الخطابة " لأرسطو ؛ حيث يرد الأسلوب عنده بمعنى التعبير ووسائل الصياغة ^(٢) ، وإلى كتاب " دلائل الإعجاز " لعبد القاهر الجرجاني ؛ حيث يعرفه، صراحة ، بقوله : " والأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه " ^(٣) - فإن بيير جيرو يصفه بأنه -رغم بساطته الشديدة - مقبول عالمياً ، كتعريف للأسلوب .

لعل مصدر القبول أنه ينطلق من المعنى اللغوي لكلمة " أسلوب "؛ فالأسلوب لغة هو " الطريق والوجه والمذهب ... والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوب بالضم ، الفن " ^(٤) ، "وسلكت أسلوب فلان : طريقته وكلامه على أساليب حسنة " ^(٥) .

هذا المعنى : " طريقة التعبير " أو " طريقة الأداء "معنى عام اهتمت به البلاغة القديمة ؛ حيث يمكننا أن نلاحظ فيه ناحيتين : الأولى : النظر للأسلوب من زاوية الكاتب ، فيعني خصائصه الفردية المتميزة ، والثانية : أنه يعنى النظام والقواعد العامة لجنس أدبي أو طبقة اجتماعية ما ^(٦) وهو ؛ لهذا المعنى العام ، لا يشمل الأدب فحسب ، بل العلوم والفنون جميعها ؛ " لأن الفنون الأخرى [كالرسم والنحت والموسيقى] لها طرق في التعبير يعرفها الفنيون ، ويتخذون وسائلها ، أو عناصرها من الألحان ومصطلحاتهم ومناهجهم في البحث " ^(٧) ، وكذلك العلماء لهم رموزهم .

- (١) بيير جيرو-الأسلوب والأسلوبية-ترجمة منذر عياشي - مركز الإنماء القومي - بيروت - د. ت. ص ٦ .
- (٢) د. محمد غنيمي هلال-النقد الأدبي الحديث-دار العودة-بيروت-١٩٨٧م-ص ١١٦ .
- (٣) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - قرأه وعلق عليه /محمود محمد شاكر - طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة ، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠ م - ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .
- (٤) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي - لسان العرب - دار صادر - بيروت ط ١ - ٢٠٠٠ م - ج ٧ ، ص ٢٢٥ .
- (٥) الزمخشري-أساس البلاغة-دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م-ص ٣٠٤ .
- (٦) د. أحمد درويش - الأسلوب والأسلوبية : مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه - مجلة فصول القاهرية - العدد (١) - ١٩٨٤م - ص ٦٠ .
- (٧) أحمد الشايب - الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية - مكتبة النهضة المصرية ط ٨ - ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م - ص ٤٤ .

وقد كان هذا دافعا إلى محاولة إيجاد تعريف محدد دقيق للأسلوب من جانب الأسلوبيين ، فأدلى كلُّ بدلوه ، باحثا عن هذا التعريف الذي يمكن أن يرتضيه دارسو الأسلوب، فمنذ بدأت الإشارة الأولى إلى موضوع علم الأسلوب على يد شارل بالي سنة ١٩٠٩ م، حين ذهب إلى " أن اللغة تعبير عن الفكرة والعواطف والمشاعر الكامنة في آن واحد لينصب موضوع علم الأسلوب لديه على " كيفية التعبير عن هذه الوجدانات بشكل أساسي" ^(٨).

هل إيجاد تعريف دقيق محدد للأسلوب أمر صعب ؟

حتى اليوم لم نقرأ، أو نعلم أن ثمة تعريفا دقيقا عُرِفَ به الأسلوب وارتضاه الأسلوبيون جميعا؛ فهل إيجاد تعريف دقيق محدد للأسلوب أمر صعب ؟ إن إشارة لـ " هاتزفليد "، في دراسة له ، ذكر فيها أن عدد المؤلفات التي أُلِّفت عن الأسلوب والأسلوبية في النصف الأول من القرن العشرين تبلغ ألفي مؤلَّف ، تجمع عناوين شديدة الاختلاف شديدة التعدد تجيب عن هذا التساؤل ^(٩) ، وقد أدى هذا إلى اعتراف كثير من الأسلوبيين بأن أهم الإشكالات المعرفية التي أثارها الظاهرة الأسلوبية، ولم تقدم لها جواباً حاسماً : إشكالية تعريف الأسلوب ^(١٠)؛ حيث إن تعريف الأسلوب، وهو موضوع الأسلوبية لم يكن موضع اتفاق بين رواد الأسلوبية، فالقواميس الأوروبية- كما يذكر جيرو- تقترح ما لا يقل عن عشرين تعريفا للأسلوب ^(١١).

وهذا يعني أن مفهوم الأسلوب مفهوم غير محدد ، بل هو " مفهوم عائم ؛ فهو وجه بسيط للملفوظ تارة ، وهو فن واعٍ من فنون الكاتب تارة أخرى، وهو تعبير يصدر عن طبيعة الإنسان تارة ثالثة؛ ولذا فهو يتعدى دائما الحدود التي يدعى أنه انغلق عليها" ^(١٢)، مما دفع جيرو إلى القول: إن "مضمون كلمة أسلوب واسع جدا، وهو عندما يخضع للتحليل يتناثر غباراً من المفاهيم المستقلة" ^(١٣).

^(٨) د. عزت محمد جاد - نظرية المصطلح النقدي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٢م - ص ٢٥٧. وينبغي أن نشير إلى أن "بالي" ليس أول من أشار إلى الأسلوبية كمصطلح ؛ فبيير جيرو يحدثنا أن أول من استخدم هذا المصطلح هو "توفاليس" قبل سنة ١٨٣٧م. إن كانت الأسلوبية، لديه، تختلط مع البلاغة . انظر: الأسلوب و الأسلوبية - لجيرو. ص ٥ .

^(٩) جيرو- الأسلوب والأسلوبية - ص ٧.

^(١٠) د. سعد مصلوح - في النص الأدبي : دراسة أسلوبية إحصائية - عين للدراسات والبحوث- القاهرة - ط ١

- ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ص ١٣ ، ١٤ .

^(١١) جيرو - الأسلوب والأسلوبية - ص ٦.

^(١٢) المصدر السابق - ص ٣٠ .

^(١٣) المصدر السابق - ص ٥ .

وعلى الرغم من هذا الاتساع الذي تتصف به كلمة "أسلوب" فإنه إذا أُطلق لفظ "الأسلوب" فهمهم "رغم انتشار استعماله، وتعدد تعاريفه، إلا أنه لا يتوخى الدقة، ولكن هذه الصعوبة في دقة التعريف لا تدفعنا إلى هجر هذا المفهوم" (١٤)؛ فقد بُذلت محاولات لحصر أهم مفاهيم كلمة الأسلوب؛ فأرجعها "جيرو"، في الوقت الحالي، إلى ثلاثة "معانٍ يرى بعضهم أنها مازالت تعبر عن فن الكاتب، وعن استخدام اللغة لغايات أدبية، ويرى بعضهم الآخر أنها طبيعة الرجل نفسها" (١٥).

وقريب من محاولة جيرو هذه، محاولة: ميدلتون ميوري؛ حيث قدّم ثلاثة معانٍ للأسلوب هو الآخر، قال: إنه لاحظها من خلال استعمالات لغوية مختلفة. أجملها د. شفيق السيد في: "الأسلوب: بمعنى خصوصيات شخصية، والأسلوب. بمعنى تكتيك العرض والبيان، والأسلوب الذي هو أعلى إنجاز في الأدب" (١٦).

ويبدو، لي، أن هذه المعاني الثلاثة لكلمة أسلوب تصب جميعاً في اعتبار الأسلوب طريقة خاصة في التعبير والإبداع: فإذا كان من المقرر أن لكل أديب طريقته الخاصة في التعبير، فمن الطبيعي أن تكون لتلك الطبيعة سمات خاصة، مردها إلى خصوصية شخصية كل مبدع أو منشئ، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد أن المنشئ أو المبدع قد أدرك تقنية نسج على أصولها أسلوبه. وإذا برع أو نبغ في هذه الطريقة فقد يصبح أسلوبه مثلاً أعلى في الأدب.

وذلك كله راجع إلى اختلاف زاوية النظر التي ينظر، من خلالها، كل من أراد أن يُعرف الأسلوب، فبحسب زاوية النظر أو التركيز إلى إحدى ركائز عملية الاتصال الأدبي، ونعني بها المنشئ أو المخاطب، والمتلقي أو المخاطب، والرسالة أو النص، بحسب ذلك سيأتي تعريف كل. ولعل عدم الدقة، والاتساع العمومية التي اتصف بها مصطلح الأسلوب، قد انعكس أثره على "الأسلوبية" بوصفها علماً حيث رفض بعض أن تكون الأسلوبية علماً بالمعنى الدقيق لكلمة "علم"، وقصارى ما تطمح إليه حينئذ أن تكون "تحليلاً لغوياً موضوعه الأسلوب، وشرطه الموضوعية، وركيزته الألسنية. بيد أن التحليل -هكذا يبرر كونراد بيرو رفضه- وما ينتج عنه من معرفة لا يكفي لتحديد أي علم من العلوم، والموضوعية شرط لازم، ولكنه غير كافٍ للكلام على

(١٤) د. رجاء عيد- البحث الأسلوبية: تراث ومعايرة -نشر منشأة المعارف بالإسكندرية- ط ١- ١٩٩٣م- ص ٣٨.

(١٥) جيرو - الأسلوب والأسلوبية - ص ٧٣.

(١٦) د. شفيق السيد: الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي - دار الفكر العربي - القاهرة - د. ت - ص ١٣١.

العلم. ولا تصبح الأسلوبية علماً؛ لاقتباسها من علوم أخرى كالألسنية والإحصاء: فالتحليل الألسني لا يندمج في التحليل الأسلوبي، وما يهم الإحصاء لا يهم الأسلوبية بالضرورة، والعكس صحيح أيضاً" (١٧).

وهو ما يوافق عليه، بل يؤكد، د. عبد القادر المهيري في مستهل تقديمه كتاب د. عبد السلام المسدي "الأسلوبية والأسلوب" مبيناً صعوبة، بل استحالة أن تصل الأسلوبية إلى صفة "العلم"؛ لأن العلم يتصف باليقين والثبات، أما الأسلوبية فإنه "من العسير تخليصها من سلطان النسبية" فالمعطيات التي تُتناوَل بالدرس في هذا المجال رهينة ظروف الكتابة، وبنية الأثر الأدبي، وأهداف الكاتب، وزيادة على كل هذا وذاك، فهي رهينة نظرة الباحث وحساسيته" (١٨).

وبالرغم من أن الأسلوبية تُعرف بأنها "البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب" (١٩)؛ فإن الطريق إلى هذه الموضوعية المنشودة - عند الأسلوبيين - ممثلة في الاعتداد بالمظهر اللغوي في دراسة النص، تمر عبر الذاتية بل يعتبرها بعض الباحثين أساس الموضوعية في دراسة العمل الأدبي؛ "فمن العبث محاولة تجريد الناقد - وهو ينظر إلى العمل الأدبي فيقومه - من ذوقه الخاص، وميوله النفسية واستجاباته الذاتية لهذا العمل... ولكن من المستطاع أن يتخذ الناقد هذه الذاتية أساساً لحكم "موضوعي".

وذلك بأن يلاحظ طبيعة العمل الأدبي الذي ينظر فيه، وأدواته الميسرة له، وطرائق تناوله والسير فيه، وقيمه الشعورية وقيمه التعبيرية بوجه عام، فينبهه كل هذا إلى محاولة الخروج من تأثره الشعوري المبهم إلى ضرورة إشراك الآخرين معه في الأسباب والمقدمات التي تدعوه إلى إصدار حكم ما. وبذلك يخرج - بقدر ما تسمح طبيعة الموقف - من الذاتية الضيقة المعتمدة على الشعور المبهم، وإلى الموضوعية العامة المعتمدة على عناصر وقواعد كامنة في العمل الأدبي ذاته" (٢٠).

هذا الرأي - وإن كان صاحبه ليس ناقداً أسلوبياً - فإن الأسلوبيين يقرون به، حيث تتخذ الذاتية مصطلحاً آخر هو الحدس، لدى أبرز رواد الأسلوبية. ذلك هو "ليوسيتير" حيث يقول،

(١٧) د. جوزيف ميشال شريم - دليل الدراسات الأسلوبية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - ط ١ - ١٤٠٤ هـ م / ١٩٨٤ م - ص ٣٧ - ٣٨.

(١٨) د. عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - دار سعاد الصباح الكويت - ط ٤ - ١٩٩٣ م - ص ١٠.

(١٩) المصدر السابق - ص ٣٤.

(٢٠) سيد قطب - النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، دار الشروق. وسيد قطب يعني "بطريقة تناول الموضوع والسير فيه: الأسلوب فهو يذكر هذه العبارة مفسراً إياها بالأسلوب في أكثر من موطن من كتابه هذا، انظر؛ مثلاً، ص

فيما ينقله عنه جيرو، "إننا ندخل العمل الأدبي حدسا- ولكن الملاحظات والاستنتاجات تتحقق من صحة هذا الحدس - وندخله أيضا ذهابا وإيابا من مركز العمل إلى محيطه . ويشكل هذا الحدس فعلا إيمانيا فالحدس نتيجة من نتائج المهوبة والتجربة والإيمان . إنه نوع من "الفرقان" الذهني ، ويعمل على إخطارنا بأننا نسير فوق الطريق الجيد" (٢١).

وهذا إقرار من رائد من رواد الأسلوبية بأن "ذات الناقد تتدخل بشكل أساسي في الكشف عن كوامن العمل الأدبي؛ فإن الباحث يبدأ في دراسته من ملاحظة حدسية بأن جزئية بعينها سوف تقوده إلى الكشف عن الأدلة الأساسية للعمل الأدبي كله" (٢٢) ، بل يذهب البعض إلى حد اعتبار أن "الذوق" و"الحدس" يقيان حكيمين وحيدين على مستوى فهم النصوص وتقديرها (٢٣).

يمكننا ، إذن ، بعد ذلك ، أن نقدم إجابة عن سؤالنا المطروح ضمنا فيما سبق ، وهو: هل يمكن أن تعد الأسلوبية علما؟ فنقول : "إن دراسة الأسلوبية بمعنى دراسة الأسلوب ... تبدو أكثر تواضعا ، إنها يمكن أن تكون دراسة منهجية للتعبير الأدبي ، لكنها لا ترقى إلى أن تكون دراسة علمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة" (٢٤).

وإذا كنا - قد انتهينا إلى أن الأسلوبية ليست علما بالمعنى الدقيق ، وإن قامت على الموضوعية فهي لا تجافي الذاتية - فينبغي أن نشير ، باختصار ، إلى أهم اتجاهاتها . حيث يمكننا أن نحصر أهمها في اتجاهين : الأول يعرف : بعلم أسلوب التعبير ، وهو يقوم على دراسة العلاقة بين اللغة والفكر ، والثاني : يعرف بعلم الأسلوب الفردي . وهو يبحث في كيفية تشكيل النص واللذة الجمالية التي يثيرها في نفس المتلقي (٢٥) ، والاتجاه الأخير هو الأكثر ذيوعا وتطبيقا؛ إذ "تعد دراسة

(٢١) جيرو - الأسلوب والأسلوبية - ص ٥٢ .

(٢٢) د. محمد أحمد بريري- الأسلوبية والتقاليد الشعرية: دراسة في شعر المهذلين"- عين للدراسات والبحوث الإنسانية- القاهرة - ط ١ ، ١٩٩٥ م - ص ١٧ .

(٢٣) جيرو : الأسلوب والأسلوبية - ص ٩٤ . ويؤكد د. سعد أبو الرضا عدم قدرة الأسلوبية على الاستغناء عن الذوق، رغم ارتكازها على الموضوعية؛ "فإن هناك جانبا ذوقيا مهما في التعامل مع النصوص قد لا يخضع لهذه الحدود المنضبطة، والوظائف المقتنة، وهو جانب أولته بعض مباحث البلاغة العربية اهتماما، كما في الاستعارة والحذف وغيرها ، ولا تصل الأسلوبية إلى هذا الجانب إلا باعتماده على المقولات الداخلية الفردية في التعبير". د. سعد أبو الرضا- في البينة والدلالة: رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية- منشأة المعارف بالإسكندرية. د. ت- ص ٢٥ .

(٢٤) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي - ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢٥) د. عزت محمد جاد - نظرية المصطلح النقدي - ص ٢٥٩ .

الأسلوب الشخصي لكاتب معين أو شاعر بذاته أكثر الدراسات الأسلوبية شيوعاً بين الدارسين^(٢٦).

وتعتمد هذه الدراسة ، في المقام الأول ، على البناء اللغوي للنص ؛ فثمة مقولة خلاصتها أن خلاصة تجربة المنشئ أو المبدع الشعورية والروحية تكمن في إبداعه اللغوي ، وعلى ذا فلا يمكن أن تفهم أو تدرس إلا بفحص لغة النص فحصاً دقيقاً^(٢٧).

هل تصلح الأسلوبية منهجاً للتطبيق على كافة النصوص الأدبية؟

ثمة تساؤل هام ينبغي أن يثار هنا : وهو هل يمكن للأسلوبية أن تغطي حقل الدراسة الأدبية كله ؟ بمعنى آخر: هل تصلح الأسلوبية منهجاً للتطبيق على كافة النصوص الأدبية ، رغم انخيازها الكامل للموضوعية واعتمادها المطلق - عند كثيرين من أنصارها - على المدخل اللغوي كمدخل رئيس ووحيد في فهم العمل الأدبي ؟ وبالتحديد أكثر هل تصلح الأسلوبية للتطبيق على " النص القرآني " و " النص النبوي الشريف " ؟!

إذا كان من المنطقي في التفكير أن نعرض المقدمات المؤدية إلى النتائج فإننا هنا ؛ على عكس هذا ، نبادر إلى التصريح بالنتيجة : فإن الباحث يرى عدم ملائمة الأسلوبية للتطبيق على القرآن الكريم والحديث الشريف ، بمنهجها المعروف المستبعد تماماً كل التأثيرات الخارجية على النص ، مما يتصل بالمؤلف والسياق التاريخي ، وغير ذلك مما ليس من داخل النص ، بل من خارجه . أرجو أن لا يسارع القارئ الكريم باتهامنا بالتعصب ، بل تمهل ؛ فما نكره إنما هو التطبيق الحرفي دون دراسة واعية لما يتناسب من هذا المنهج ، وما لا يتناسب .

إن هناك من قد أعلن صراحة عدم إمكانية أن تغطي الأسلوبية حقل الدراسة الأدبية بكامله . بمعنى أن تصبح منهجاً واجب الإتياع على كل دراسة تهتم بالأدب . إن الأسلوبية مهما امتدت واتسع مجالها - يقول د. شفيق السيد - " لا يمكن أن تغطي حقل الدراسة الأدبية بكامله ، فكثير مما يهتم به دارسو الأدب يتألف من وحدات أكبر مما يمكن أن تعالجه الدراسة الأسلوبية ، مثل الحكمة الشخصية ، وتنسيق الأفكار ، وغيرها " ^(٢٨).

أقول : إذا جاز هذا التمهّل في معرفة هل تتناسب الأسلوبية مع بعض جوانب الإبداع البشري أو الكلام البشري أفلا يحق لنا أن نتوقف نفس الوقفة مع " كلام الله " بكل ما تعنيه هذه الإضافة ، أو مع كلام رسول الله ﷺ ، وأيضا بكل ما تعنيه الإضافة ؟!

^(٢٦) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبي - ص ١٥٢ .

^(٢٧) انظر : المصدر السابق - ص ١٥٣ .

^(٢٨) المصدر السابق - ص ١٦٢ .

إنني أرى أننا لا يمكننا أن نطبق المنهج الأسلوبي المشار إليه آنفاً على النص القرآني أو الحديث النبوي الشريف دون تدخل للأخذ بما يناسب والرفض لما لا يتناسب ، مستنداً في ذلك إلى اعتراف بعض رواد الأسلوبية بعدم إمكانية أن تطمح الأسلوبية في أن تكون نظرية شاملة لكل ما ينضوي تحت مصطلح الظاهرة الأدبية^(٢٩).

قد تبدو هذه مصادر فكرية ! وإبراز مقدمات تلك الرؤية أو تلك النتيجة فإننا نطرح ابتداءً سؤالاً نراه مهماً: هل يمكن ابتداء تطبيق منهج هو نتاج فكر وعقيدة ومزاج ثقافي يختلف تماماً عن فكرنا وثقافتنا دون فحص وتمحيص؟! قد يبدو التساؤل منطقياً ، وقد يعترض عليه بعض ، ولكن ينبغي ألا يغيب عن بال المعترضين جوهرية التساؤل .

إن المنهج الأسلوبي في دراسة الأدب منهج - كغيره من المناهج والمدارس النقدية الغربية - نبت في تربة ثقافية لها خصوصياتها ومزاجها الفكري والخلقي والعقائدي . إنه مذهب نقدي نابع من استقراء مجموعة من النماذج الأدبية البشرية الراقية ، ولذا هو يقارب " النص " على أساس ، أنه في أغلب الأحيان - انعكاس لشخصية قائله ؛ فالأسلوب صورة لفظية تعكس السمات النفسية والشخصية لكاتبه أو مؤلفه ؛ فالأسلوب هو الرجل أو الإنسان - كما قال بوفون -^(٣٠).

ومعنى هذا أن " لكل عمل أدبي قبل أن يتخلق في صورته اللفظية صورة مثالية في نفس الشاعر [أو الكاتب أو الأديب] وذهنه . ويتفق العلماء من قديم الزمن على أن الباعث على هذه الصورة انفعال ما نتيجته وحي ، وقوة خفية قالوا عنها: إنها شيطان ، وإنما عروس الشعر " ^(٣١).

ولاضير أن يتناول الدارس الأسلوبي النص الأدبي الذي أبدعه بشر ، ولو كان عبقرياً من هذا المنطلق . أما أن نحاول أن نتعامل ، من هذا المنطلق ، مع النص القرآني " الإلهي " المقدس ، أو النص النبوي الشريف الصحيح ، فإننا ابتداء نكون قد أنزلنا النص المقدس من مرتبة " كلام رب الناس " المتصف بالكمال المطلق في كل شيء ، الذي لا يشبهه شيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى / ١١] إلى مرتبة كلام الذين الناس يعتورهم النقص ، وتتحكم فيهم

^(٢٩) د. عبدالسلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - ص ١١٩ .

^(٣٠) انظر : برند شيلنر - علم اللغة والدراسات الأدبية : دراسة الأسلوب ، البلاغة ، علم اللغة النصي - ترجمة وتعليق د. محمد حاد الرب - نشرة الدار الفنية للنشر والتوزيع - الرياض - ط ١ - ١٩٨٦م - ص ٢٦ . وقول بوفون هذا ، له خلفيته الثقافية في التراث اليوناني القديم ، فقد قال أفلاطون " الأسلوب شبيه بالسمة الشخصية " . انظر : جيرو . الأسلوب والأسلوبية - ص ٢٢ ، ٢٣ .

^(٣١) د. محمد زغلول سلام. تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع عشر الهجري. منشأة المعارف بالإسكندرية

الأهواء ؛ فيعتري هذا اضطراب عاطفي أو نفسي لحظة ما أو يعاني آخر من أمراض نفسية يمكن أن تظهر عند تحليلنا لأسلوبه^(٣٢) ؛ فالشاعر أو الفنان ينظر إليه - كما يصف ديرو - على أنه "شخصية روائية وعصي المزاج ، فهو قبل أن يأخذ بالقلم يضطرب عشرات المرات في حفرة موضوعه ، ويفقد النوم ليقوم في منتصف الليل فيهرول في قميص نومه بقدمين عاريتين ليدون كلامه في ضوء مصباح^(٣٣) .

هذه هي التربية الفكرية والثقافية التي نشأ فيها الاتجاه الأسلوبي - وهي خلفية ثقافية إن انطلقنا منها في تناولنا الأسلوبي للنص القرآني أو الحديث الشريف أدت بنا إلى الوقوع في التشبيه ، بالنسبة لذات الله ، وأدت إلى تناول الحديث الشريف على أنه " كلام بشر " وليس كلام بشر " رسول "^(٣٤) . هذا ، في حد ذاته ، ليس عيبا في المنهج الأسلوبي ؛ إذ إن أصحابه لم يحاولوا - فيما نعلم - أو لم يدعوا وجوب تطبيقه على النص القرآني أو النص النبوي الشريف .

تلك خلفيه ثقافية ومعرفيه لهذا المنهج الذي لا تهتم تربته الأصلية ولا تأبه لهذا الذي نقول ؛ لأن خلفيته هذه لا تعترف - الآن ، بالقداسة للدين ، أي دين ، حتى الدين الذي ينتمون إليه ، برغم ما أصابه من تحريف لديهم ! والقداسة ، الآن ، لديهم ، للعقل والعلم وحدهما . تلك خلفيه ربما لا يتفق بعض الباحثين معنا فيها ، لكنها تنطوي على تحذير ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار .

وإذا كان هذا يعني أن الباحث يحذر من خطورة نقل وتطبيق المنهج الأسلوبي على النص القرآني المقدس أو نص الحديث الشريف فإن التحذير نفسه ، قد انطلق ، من قبل ، على الشعر العربي نفسه . ينقل الدكتور عبد العزيز حمودة في كتابه " المرايا المقعرة " عن محمد مفتاح ، تحذيره - عبر مجلة فصول المصرية ، في مقال له بعنوان " مدخل إلى قراءة النص الشعري " من " خطورة النقل [أي نقل المناهج أو النظريات النقدية الغربية] دون إدراك الاختلاف [أي الاختلاف بين الثقافتين الغربية والعربية] فهو يذكر الناقد العربي أن للشعر العربي خصوصيته ، وأنه ليس عبثيا أو عدما ، أو ترفا فكريا ، ثم يحذره من خطورة تناسي خصوصيته الثقافية " فالشعر العربي المعاصر

(٣٢) على نحو ما فعل " فرويد " في تحليله أسلوب ليوناردو دافنشي ، في بحثه المعنون بـ " ليوناردو دافنشي : دراسة في السيكلوجية الجنسية " . حيث اعتبر أن إبداعه كان نتيجة إحساسه بالرغبات الجنسية المكبوتة ، والتي كانت تظهر في إبداعه ، نتيجة رغبته في التسامي عن هذه الرغبات المكبوتة ... نظر في ذلك د. علي عبد المعطي محمد الإبداع وتذوق الفنون الجميلة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٥م - ص ١١٥ .

(٣٣) د. محمد زغلول سلام - تاريخ النقد الأدبي والبلاغة - ص ٥١ .

(٣٤) د. محمد زغلول سلام - تاريخ النقد الأدبي والبلاغة - ص ٥١ .

بصفة عامة [كما يقول مفتاح :] ليس عبثيا وليس عدما وليس شعره مجرد إشباع ثقافي ، وعلمي ، وترف سياسي . وعليه ، فإن نقل أي منهجية جاهزة لتحليل الشعر العربي المعاصر بما قد تسلب هذا الشعر رسالته، وخصوصيته في مجتمعات ذات خصوصية^(٣٥).

فإذا كنا حريصين على أن يتناسب المنهج النقدي الذي سندرس به الشعر العربي المعاصر معه ، وأن يراعى خصوصيته ؛ أفلا يكون مشروعنا لنا أن نكون أشد حرصا إذ نتناول نصوصنا الدينية المقدسة وهي أخص خصوصياتنا التي يحاول دعاة الحرية المزعومة أن يسلبونا قدسيتها وخصوصيتها لتصبح نصا كأني نص إبداعي ينتجه البشر؟! .

أفلا يجوز لنا أن نقول - وبعملية إحلال بسيطة لكلام مفتاح السابق - إن نقل أي منهجية جاهزة (الأسلوبية) لتناول أو مقارنة [كما يجب الأسلوبيون] النص القرآني أو النص النبوي الشريف الصحيح ، ولا أقول قد ، بل ستسلب هذه النصوص المقدسة خصوصيتها وقدسيتها ، إن لم يستبعد منها كل ما قد يؤدي إلى سلب هذه القدسية وتلك الخصوصية . وإذا كان جوهر الأسلوبية يقوم على أن فهم العمل الأدبي لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال لغته ؛ فمن القواعد الأسلوبية المقررة " أن التحليل الأسلوبي يجب أن يبدأ بالاستسلام للعمل [أي العمل الأدبي] كما هو في ذاته "^(٣٦) .

الأسلوبية ، إذن ، لا تركز إلا على العمل الأدبي من خلال لغته ، فهي لا تلتفت إلى ملابسات النص الخارجية . والتركيز على العمل الأدبي عند الأسلوبيين معناه الاعتداد بالنص ذاته فحسب. وهم ينطلقون من هذا المنحى من مقولة دوسوسير " يجب أن يكون الانطلاق من اللغة ذاتها "^(٣٧) فاللغة ، إذن ، عند دوسوسير هي ميدان دراسته . اللغة وحدها دون أي مؤثر خارجي للعمل الأدبي ، وبناء على هذا قام التفكير الأسلوبي؛ حيث يقصر نفسه - كما يقول المسدي - " على النص في حد ذاته بعزل كل ما يتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية "^(٣٨) .

(٣٥) د. عبد العزيز حمودة -المرآة المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - العدد (٢٧٢) - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م - ص ٦٩ ، ٧٠ . انظر كذلك في عدم جدوى الإصراف في نقل المفاهيم الغربية : د. سعد أبو الرضا - في البنية والدلالة - ص ٢٢ ، ٢١ .

(٣٦) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي . ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣٧) د. عدنان حسين قاسم -الاتجاه الأسلوبي النبوي في نقد الشعر العربي - الدار العربية للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م - ص ٢٨ .

(٣٨) د.عبد السلام المسدي-الأسلوبية-ص ٣٥ . وانظر أيضا: عبد الله الغدامي -الخطيئة والتكفير : من النبوية إلى التشريحية -الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٨٨، ص٤٠، ٢٠ .

والمسدي نفسه يستخلص هذا المبدأ الأسلوبي حين يحاول تدبر وجهة النظر الأسلوبية التي تحاول عقلنة ماهية الأسلوب . يقول : إن الأسلوبية " تنطلق من النص لتعود إليه ، وقد تقرنه بباثه أو مستقبله ، بل ربما نزلته منزلة المجهر العيني الكاشف لبعض خلايا الجهاز اللغوي عامة ، وتبقى التقديرات التاريخية والسوسولوجية وحتى الأيديولوجية في معزل عن مشاغلها " (٣٩).

وبدهي أن مفتاح النص الرئيس، لدى الأسلوبيين ، حينئذٍ ، ليس إلا لغته التي تشكل منها . بل هم يغالون في ذلك إلى درجة اعتبار هذا السبيل (أي لغة النص) مدخلاً وجيداً لدراسة العمل الأدبي . بل يصرح بعضهم بأن هذا النوع من الاعتقاد لديهم يوازي الاعتقاد الديني المقدس . يقول جراهام هو : " إن البدء في دراسة العمل الأدبي من المظهر اللغوي ليس مسألة منهجية فحسب ، بل هو يُعَلَّف عند الأسلوبيين نوعاً من الاعتقاد المقدس في أن السبيل الوحيد للوصول إلى كنه العمل الأدبي وحقيقته ، لا يتأتى عن غير هذا السبيل " (٤٠).

هذا الاعتقاد المقدس عند الأسلوبيين لا يفتنون يؤكدون عليه ، فهذا موكاروفسكي يقول-أيضاً- " سواء نظرنا إلى الأسلوب بوصفه تقليداً يعلو الفرد ، أو نظرنا إليه بوصفه مظهراً فردياً ، فإن الأمر في الحالتين يقصر البحث عن جماليات العمل الأدبي على البحث في لغة العمل " (٤١) فالدراسة الأسلوبية، إذن، " تنصب على النص مجرداً ، وتنصرف إليه كلية " (٤٢).

فإذا كان هذا هو جوهر الأسلوبية فهل يمكننا أن ندرس النص القرآني أو النص النبوي الكريم دراسة أسلوبية منطلقين من هذا المبدأ الأسلوبي؟ وبعبارة أخرى هل يمكننا أن نفهم الآيات القرآنية أو ندرسها، دون الوقوف على معرفة المكّي والمدني ، وأسباب النزول، والحكم والمتشابه وأساسيات العقيدة الإسلامية الصحيحة، وهي كلها أمور أو ملابسات تقع خارج دائرة النص القرآني؟!.

إن المدخل اللغوي في فهم ودراسة " النص " مدخل هام وأساسي عند الأسلوبيين، سواء الغربيون منهم أو العرب، ونحن لا نماريهم في أهمية هذا المدخل لفهم العمل الأدبي ، لكننا نختلف في نظرنا أو في نقطة الانطلاق في الدراسة . إنه مدخل هام . نعم . لكنه ليس المدخل الوحيد ، قد يكون كذلك، أو يجوز أن يكون كذلك، إذا طبقه الأسلوبيون على الشعر الغربي، أو حتى على

(٣٩) المصدر السابق - ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٤٠) د. محمد أحمد بريري - الأسلوبية والتقاليد الشعرية . ص ١٤ .

(٤١) المصدر السابق - نفسه .

(٤٢) د. عزت محمد جاد - نظرية المصطلح النقدي - ص ٢٨٥ . وانظر كذلك : د. فتح الله سليمان - الأسلوبية :

مدخل نظري ودراسة تطبيقية - الدار الفينة للنشر و التوزيع . ص ٢٢ - ٢٣ .

الشعر العربي ، على الرغم من تحفظ بعض النقاد كما أشرنا سابقاً، أو على فن من فنون النثر، لكنه يستحيل أن يكون مدخلا وحيدا لفهم النص القرآني المقدس المتزل على محمد ﷺ من ربه عن طريق أمين الوحي جبريل - عليه السلام - لفظا ومعنى المنقول إلينا تواترا ، المتعبد بتلاوته . قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء/ ١٩٣ : ١٩٥) وقال سبحانه أيضا: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) [الواقعة / ٧٧ : ٧٩] أو النص المنقول إلينا عن رسول الله ﷺ من قوله أو فعله أو تقريره أو صفته^(٤٣) ، وثبت عند أهل الحديث صحته أو حسنه ؛ فهو وحي أيضا بإلهام أو بمنام . قال تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم / ١ : ٤] .

أقول : لا يمكننا أن نطبق هذا المنهج الأسلوبي المعتمد اعتمادا كلياً على لغة النص كمدخل وحيد في فهم أو تناول أو مقارنة النص القرآني الكريم أو النص النبوي الشريف ، فهذا المبدأ الأسلوبي الذي لا يختلف حوله أي من الدارسين الأسلوبيين " لا يقول شيئاً مهما من الناحية العملية " ^(٤٤) .

هذا تعليق الدكتور شكري عياد . ونحن نؤيده لصحة ما ذهب إليه؛ إذ علينا ، حينئذ ، أن نطرح جانبا كل ما تجب معرفته والإلمام به مما قرره علماؤنا أنه واجب لفهم القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة فهما صحيحا ، كعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث الشريف . كما أنه تبعا لهذا المنهج فإن علينا أن نتعامل مع " النص القرآني " على أنه " نص مُبدع " كأبي نص يبدعه البشر ! وكذا حديث رسول الله ﷺ أي نخلع عنهما قدسية " الوحي " . وهم ابتداءً ، أي الأسلوبيون الغربيون ، لا يقرون ، في حدود علمنا ، للرسول ﷺ بأنه نبي يوحى إليه ، وأقصى ما يبلغ عندهم أنه بشر عظيم ^(٤٥) استطاع أن يجمع العرب في دولة واحدة ! والنتيجة أن نتناول القرآن على أنه "كلام " لا أنه "كلام الله " ، والحديث على أنه كلام بشر عادي لا أنه كلام نبي يوحى إليه .

^(٤٣) انظر د. محمود الطحان- تيسير مصطلح الحديث - مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، ط ٩ - ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م - ص ١٥ .

^(٤٤) د. شكري عياد - مدخل إلى علم الأسلوب - دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ط ١ - ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م - ص ١٣٨ .

^(٤٥) الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمد - دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ كتاب الشعب - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - ص ١٤٢ وما بعدها .

باختصار، نتناولهما بالدراسة الأسلوبية على أنهما كلام " منشئ " أو " مبدع " بكل ما تحمله الكلمة من دلالة على التشبيه والتجسيد في حق الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا - وإنزال كلام محمد ﷺ من مرتبة كلام نبي إلى كلام إنسان عادي علينا أن نكتشف من دراسة نصوصه ظواهر أسلوبية قد تدلنا على شخصيته وسماته النفسية ، عملا بمقولة بوفون السابقة الذكر، من اتزان ، أو اضطراب، أو كبت، أو كذا وكذا ، مما نرفضه ابتداءً .

اعتراضان على المنهج الأسلوبي :

هناك، إذن ، اعتراضان على المنهج الأسلوبي إذا أردنا أن نتناول به النص القرآني الكريم أو النص النبوي الشريف :

أولهما : أن يكون المدخل اللغوي مدخلا وحيدا في تناول النص الديني المقدس.

وثانيهما: أن نتناول هذين النصين على أنهما نصوص من إبداع بشري عبقري.

من المدهش حقا أن أحد رواد الدراسة الأسلوبية العربية، وهو د. سعد مصلوح ، قد أوماً إلى هذا الذي نعترض به على المنهج الأسلوبي في تناول القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف . يقول - في معرض تنظيره ما سماه بأسلوبيات " المقام " ، وبعد عرضه تنظيرا لأسلوبيات المقال-^(٤٦):"ومن جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان : أولهما : " لكل مقام مقال " ، والأخرى : " البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال " ، وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعا تعليميا . ولكنهما تقرران من الوجهة العملية مبدأ تُطبق على صحته جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة ، والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها - تنظيرا أو تحليلا - بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي ، ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب التزول أصلا من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومان إلا به ، وما المعرفة بأسباب التزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال " ^(٤٧).

ويعترف في موضع آخر بأهمية السياق أو المقام وما يحيط به من ملايسات من فهم المقال. حيث " يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد المقام بالمقال ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال،

^(٤٦) يقصد د. سعد مصلوح بأسلوبيات المقال ، أو متغيرات أسلوبية تميز النص . وقد أورد قائمة بأنواع هذه المتغيرات اللغوية التي تتحول بالاستعمال اللغوي في النص من متغيرات شكلية وصوتية ، وصرفية، وتركيبية ودلالية، إلى متغيرات أسلوبية. د. سعد مصلوح- في النص الأدبي- ص ٢٨ ، وما بعدها، و ص ٣٥ .

^(٤٧) المصدر السابق - ص ٣٧.

ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة ، لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم " (٤٨).

ما يجب علي من يدرس النص الديني المقدس الصحيح دراسة أسلوبية :

بناء على ما قدمنا ، فنرى أنه يجب علي من يدرس النص الديني المقدس الصحيح أمران خطيران، وهو بصدد تحديد مفهومه ومنهجه :

أولهما : عدم التعويل المطلق على لغة النص الديني وحدها كمدخل وحيد لفهمه .

ثانيهما : الانطلاق في تناول النص القرآني أو النص النبوي الشريف، على أن الأول " كلام الله " ، وأن الثاني كلام نبي الله المؤيد بالوحي ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ {٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ {٤} ﴾ [النجم / ٤] بكل ما تعنيه دلالة الإضافة في كل بما ينبغي في حق الله - تعالى - ورسوله ﷺ وما لا ينبغي حسب عقيدة التوحيد الصحيحة.

والباحث ، في اعتراضه هذا ، يصدر عن قناعة مؤداها أن المنهج ينبغي أن يكون وليد الدراسة ، وأن يتناسب مع طبيعة الأثر الفني المدروس ، مستندا في هذا ، إلى رأي علمين من أعلام الدراسة الأسلوبية في الغرب ، هما : " هوبر " ، "جيرالد أنطون" ، مع ملاحظة أنهما لم يضعوا في اعتبارهما ، أصلا ، تناول النص المقدس بالدراسة .

فأما الرأي الأول : فقد نقله برند شبلنر في كتابه " علم اللغة والدراسات الأدبية " . يقول هوبر : "فمما لا شك فيه أنه لا يوجد في الدراسات الأدبية ، المنهج الذي يصلح للتطبيق في كل الحالات ؛ لأن كل عمل فني إنما هو عمل فني لا يتكرر ، ومن ثم ينبغي وجود منهج ، والأفضل القول : بوجود طريقة بحث مناسبة لكل حالة من الحالات . ويمكن استنتاج هذه الطريقة بالتخمين من خلال القراءة المتأنية للنص " (٤٩).

وأما الثاني ، فهو رأي أنطون جيرالد ، وهو رأي أدق من سابقه ، ونعتبره المستند الأبرز في اعتراضنا ؛ يقول - فيما نقله عنه د. جوزيف ميشال شريم - " إننا نحتاج إلى طريقة تحليل خاصة بكل أثر فني ، وإنه يتوجب على " طريقة التحليل التي نطبقها على أي أسلوب أن تُبدل في توجهاتها ووسائلها ، وفقا لمكانة هذا الأسلوب المذكور " (٥٠).

(٤٨) المصدر السابق - ص ٤٦ .

(٤٩) برندشبلنر - علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ١٣٢ ، ١٣٣٠

(٥٠) د. جوزيف ميشال شريم - دليل الدارسات الأسلوبية - ص ٥٧ .

من ثم فإن البدائل المقترحة هي :

أولا : أن نطلق في مقاربة " النص " المقدس من نسيجه اللغوي ، ومن جميع الملابس السياقية التي ترتبط بالنص القرآني أو النص النبوي الشريف ، وتسهم في فهمه الفهم الصحيح .
كعلوم القرآن الكريم ، وعلوم الحديث ، وسيرة صاحبه ﷺ ، إضافة إلى السياق الاجتماعي والتاريخي للنص .

هذا ما يؤكد علماء اللغة أهميته في تحديد المعنى، بل بعض علماء الأسلوب أيضا ، مثل سبنسر وجريجوري ، حيث أكدوا على أهمية السياق في فهم النص وتحديد المراد منه ، وتتلخص نظريتهما في السياق في قوله الثلاثة ، عندهما ، يعينان بما : الحقل الذي يربط الخطاب أو الكلام بموضوعه ، وحالة الخطاب ويقصدان بما ما ينبغي معرفته للتعرف على الفروق اللغوية الناتجة عن الفرق بين خطاب مكتوب وآخر منطوق . أما الثالث . فهو فحوى الخطاب ومدى تأثيره في علاقة المتكلم والكاتب بالمستمع والقارئ^(٥١) .

ولسنا ، في هذا ، أول المعارضين . بل من رواد الأسلوبية أنفسهم من يعارض فكرة التركيز التام على النص ولغته التي تتبناها الأسلوبية ، وكذلك البنيوية الشكلية ، التي ترى أن فهم دلالة أو معنى النص يكون من خلال نظمه هو أو بنائه اللغوي ذاته ؛ فالبنيوية التوليدية - مثلا - ترى " أنه لا يمكن عزل النص ؛ ومن ثم المؤلف ، عن السياق الاجتماعي والتاريخي " ^(٥٢) .

وقد كان هذا المتزع الأسلوبي المركز الاهتمام على النسيج اللغوي للعمل الفني والمبتعد عما هو " خارج " النص ، كبعض الحقائق التي تتصل بحياة المؤلف وسيرته الذاتية وكل ما قد يكون ضروريا في فهم النص - قد كان هذا من أهم الاعتراضات التي وجهت إلى الأسلوبية ، بل عد من أهم عيوبها^(٥٣) .

ذلك " أن كثيرا من الممارسات النقدية الأسلوبية تنزع إلى الخيلاء ، وعدم الاكتراث بالعوامل التاريخية واللغوية الكامنة وراء بعض العبارات "^(٥٤) ؛ فهل تستخدم " اللغة " في أي نص من النصوص بمعزل عن مستخدمها ومتلقيها وملابسها الاستخدام الأخرى المحيطة بالكلام !؟ إن

(٥١) د.عبد العزيز حمودة - المرايا المقعرة - ص ١٤١ .

(٥٢) د.محمد العبد- اللغة العربية والإبداع الأدبي- دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع-القاهرة-ط ١٩٨٩، ١- ص ٣٢ .

(٥٣) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي - ص ٧٢ .

(٥٤) المصدر السابق . ص ٨١ .

علينا أن نفهم -بعمق- أن اللغة تعمل داخل إطار واسع من النشاط الإنساني" (٥٥)؛ "فكل جزء من اللغة، إذن، هو جزء من موقف، كذلك النص له أيضا علاقة بالموقف" (٥٦) والسياق، ولعلنا نستطيع أن نفهم، من خلال السياق أكثر مما يمكن أن نفهمه من الوحدات اللغوية التي شكلت النص. "أي أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تُعزى بشكل مباشر بسيط إلى وحدة [لغوية] معينة أو وحدات مضمومة بطريقة آلية" (٥٧).

ولا نبعد، في هذا، كذلك، كثيرا عما اقترحه أحد رواد الأسلوبية، وهو برند شبلنر، إذ اعتبر أن التحليل الأسلوبي يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية: هي:

- ١ - جزء لغوي: ويتعامل مع التعبيرات المنتظمة لغويا.
- ٢ - جزء عملي: ويسهل تناول أحناس: المؤلف، القارئ، والسياق التاريخي وموضوع الحديث.
- ٣ - جزء جمالي أدبي: ويرتبط بالتأثير على القارئ، بالشرح الأدبي والتقديم. وهي أجزاء يرتبط بعضها ببعض الآخر (٥٨).

ثانياً: معرفة مكانة النص: ولا نعني ما عناه أستاذنا الدكتور رجاء عيد - رحمه الله بمكانة النص

التاريخية فحسب (٥٩) بل أيضا من حيث مكانة قائله وسيرته ومرجعته، و"الصوابط"

التي تحكم تناوله من جانب أي باحث.

ونحن، في هذا، أيضا، نأخذ برأي أحد الأسلوبيين-وهو فرنن لي- حيث يرى أن الاكتشاف الحقيقي لأدب الأديب، إنما هو من خلال سيرته. بل إن تتبع سيرته الذاتية يسهم، بشكل كبير، وبطريقة أدق، في اكتشاف الكاتب أو الفنان، وهذا يتم "بالرغم من كل محاولة جاهدة لتحاشيه... إذ إن ما يعبر الكاتب عنه حقا هو طبعه وشخصيته العميقة، وما يفضله وما ينفر منه، ومظهره ونمط حياته ونفوذه واتزانه وحيويته وفتوره... وهذا ما يعبر عنه إن كان يقدم بيانا حقيقيا باهتماماته الخاصة أو كان يبتكر اهتمامات شخص آخر" (٦٠).

(٥٥) د. رجاء عيد - البحث الأسلوبي - ص ٨٧.

(٥٦) المصدر السابق - ص ٨٧.

(٥٧) د. مصطفى ناصف - نظرية المعنى في النقد العربي - دار الأندلس - د.ت - ص ١٦٢.

(٥٨) برند شبلنر - علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ٣١.

(٥٩) د. رجاء عيد - البحث الأسلوبي - ص ٩٤ - ٩٥.

(٦٠) د. جوزيف ميشال شريم - دليل الدراسات الأسلوبية - ص ٦١.

فإذا كان هذا في شأن النص الذي أبدعه بشر عادي؛ فهل لا يسوغ لنا أن نتوقف عند مقارنة" نص إلهي" أو" نص نبوي كريم" لنتناوله من خلال مكانة قائله كمفتاح من أحد مفاتيح النص المهمة؟

إن علينا عند تناول نص ما أن نتعرف على مكانة صاحبه : أهو بشر عادي ، ولو كان عبقرياً ، أم هو بشر أوحى إليه ؟ أم صاحب النص ليس بشراً ، بل هو الإله الحق ! الواحد الأحد ؟ وما مدى مرجعية هذا النص ؟

فإذا كانت الإجابة أن النص إلهي ؟ فهل ما زال هذا النص كما أنزله الله بلا تحريف أو تبديل ؟ فإن ثبت أن يد التحريف والتبديل لم تتطرق إليه ألبتة ؛ فإن علينا حينئذ أن نتعامل معه وفق "ضوابطه الشرعية" غير غافلين أو مُعْظِلين إياها . بإيجاز ، نتعامل معه على أنه " كلام الله " .

أما إذا كانت الإجابة : أنه نص بشري ؛ فإن لنا أن نعرف أولاً : أهو بشر رسولا ؟ فإذا كان بشراً رسولا فما مدى صدق نسبته إلى ذلك الرسول ؟ فإذا ثبت أن النص للرسول ﷺ وفق ما أجمع علماء الأمة على صحته ؛ فلنتعرف لهذا النص مكانته ، من حيث إنه من قبيل الوحي أي بطريق المنام أو الإلهام ، فيتعامل مع كلامه ﷺ وفق الضوابط الشرعية التي ينبغي أن نعرفها لرسول الله ﷺ مثل معرفة ما ينبغي في حقه ﷺ من صفات وشمائل ، وما لا ينبغي ، إذ هو أكمل البشر ، وأفضلهم .

ومن مثل تزيه كلامه ﷺ عما يمكن أن يوصف به كلام أي مبدع من انطلاقه-مثلاً- عن دافع الكبت أو التنفيس أو انطلاقه عن غير الشعور ، كما يرى أنصار المدرسة السيكلوجية في تفسير الإبداع ، وعلى رأسهم فرويد الذي يرى - في خلاصة رأيه - أن الإبداع إنما هو نتاج شخصية مريضة نفسياً تعاني الكبت والقمع ، وغير ذلك ، وبتساميها عن غرائزها تظهر العبقرية أو النبوغ في العلم أو في الفن^(٦١) .

أو أن ينظر إليه على أنه كلام إنسان طبع بجمتمية الجنس والنوع والبيئة . بمعنى أنه من نتاج هذه الجمتمية ، عند "تين" وغيره من أصحاب النظرية الاجتماعية في تفسير الإبداع الأدبي^(٦٢) ، أو أن نفهم الوحي . بمعنى الإلهام ، كما يفهمه أصحاب نظرية الإلهام والعبقرية في تفسير الإبداع ،

(٦١) د. علي عبد المعطي محمد- الإبداع وتذوق الفنون الجميلة- ص ١١٦ - ١١٧ . على أن ذلك غير مُسَلَّم به لفرويد حتى من قبل تلامذته ، فيونج ، وهو أحد تلامذته ، لا يوافق على اعتبار الفنان مريضاً تبعث منه عبقريته من أسباب مرضية . انظر في ذلك : سيد قطب - النقد الأدبي الحديث : أصوله ومناهجه - ص ١٩٤ .

(٦٢) المصدر السابق (الإبداع الفني) - ص ٢٠٢ .

فصورة الأديب عند هؤلاء صورة إنسان مسلوب الإرادة ، فاقد الوعي ، تسيطر عليه قوة خفية يسمونها مرة إلهاً ، وأخرى شيطانا ، أو هي مجموعة قوى أو آلهة - كما يزعمون - فيصبح الإنسان المبدع عندهم . " مجرد واسطة أداة أو لسان حال لقوة عليا فوق الطبيعة لا حرية له ولا اختيار " (٦٣) .

ثالثاً : علينا ألا نتناول الحديث الشريف على أن غاية صاحبه ﷺ كانت الإبداع الأدبي قصداً ، فما كان رسول الله ﷺ بشاعر ولا ناثر ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس / ٦٩] ، وإنما غاية المبدع عند أغلب المدارس النقدية هي التعبير عما يحس ويشعر ، بل قد تصحح عملية الإبداع في حد ذاتها غاية ، كما هي ، عند أهل الفن للفن . بل كانت غايته الأساسية ، ومهمته الأولى والأخيرة هي الدعوة وتبليغ الرسالة . (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [المائدة / ٦٧] فلم يكن شاعرا أو مبدعا يقصد الإبداع ؛ فهل يعني هذا أن " كلامه " ﷺ وهو نص منطوق ، لم يرق إلى الأسلوب السامي أو الراقى في الأدب ؟ بحسب أن " كلامه " ﷺ ينتمي حينئذ إلى اللغة العادية - كما يسميها فتحن شتين - (٦٤) أي اللغة المستخدمة في الواقع الحياتي المعيش ، أو ما تسمى في أسلوبية " بالي " باللغة التلقائية أو اللغة الطبيعية ، التي لا تملك القدرة على إنتاج المثل الأدبي الأعلى . يقول بالي : " إن اللغة الطبيعية كتلك التي نتكلم بها جميعا ، ليست في خدمة الفكر الخالص ، وليست في خدمة الفن ، فلا تملك المثل الأعلى لأي منهما " (٦٥) ، وفحوى هذا الكلام أن هناك مستويين لغويين : الأول : عادي وتمثله اللغة العادية أو المنطوقة أو التلقائية ، وآخر فني ، يبدو في الآثار الأدبية الرفيعة المكتوبة .

وعلى الرغم من هذا ، فقد اهتمت أسلوبية بالي بالخطاب أو الكلام اللساني في أي مستوى لغوي كان ، بينما اقتصرت الأسلوبية ، بعده ، على دراسة الكلام الفني ، ومن ثم نصل إلى محور التساؤل نفسه : هل كان نص الحديث النبوي - وهو نص منطوق في الأصل - يمثل مستوى فنيا برغم انتمائه إلى اللغة العادية أو التلقائية ، كما أشرنا آنفا ، أي : هل يمثل مستوى أسلوبيا جديرا بالدراسة ؟

(٦٣) المصدر السابق - ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٦٤) د. محمود فهمي حجازي، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت-١٩٨٥ / ٥١٤٠٥ م - ص ١٠٦ .

(٦٥) د. شفيق السيد-الاتجاه الأسلوبى في النقد الأدبي-ص ٩٤. وانظر: المسدي : الأسلوبية والأسلوب - ص ٤١ .

الحديث النبوي الشريف إلى أي مستوى أدبي ينتمي؟

مشروعية التساؤل وضرورة الإجابة عنه تنبع من أن الأسلوبية في حدود علمنا ، وكما أشرنا ، صارت تحصر نطاق دراستها في الآثار الأدبية الفنية ، كما يرى ليوسبيتزر^(٦٦) ، والحق أنه بالرغم من أن الحديث الشريف يعتبر ، في الأصل، نصا منطوقا ينتمي إلى اللغة العادية أو الطبيعية أو المستعملة ، فإن هذا لا يقدح فيه، بل هو ميزة؛ إذ الكلمة المنطوقة الصادرة عن جسد حي تبدو أقرب إلى الفكر الخلاق من الكلمة المكتوبة^(٦٧) ، ولا غرابة في ذلك ، فاللغة المنطوقة أسبق وسائل الاتصال اللغوي الإنساني^(٦٨) ، لكن إلى أي مستوى من مستويات الاتصال اللغوي يمكن أن ينسب النص - النبوي الشريف. أهو مستوى الخطاب العادي أم هو المستوى الأدبي الرفيع؟

ما من شك في أن العصر الذي بعث فيه النبي ﷺ كان عصر الفصاحة والبلاغة الفطرية ، والمهارة اللغوية لدى العرب ، وهو أرقى عصور اللغة العربية من حيث امتلاك أبنائها زمامها تحدثا وشعرا وفصاحة وبلاغة ، وما نعرفه عن منتدياتهم الشعرية - إن جاز التعبير - دليل على ذلك ؛ فلم يعلم أن أمة كانت تقيم للكلمة المنطوقة سوقا يتبارى فيه الشعراء غير هذه الأمة سواهم، وأكثر دلالة منه نزول القرآن الكريم متحديا إياهم أن يأتوا. يمثله القرآن ثم بعشر سور مثله مفتريات ، ثم بسورة ... ومعلوم أن أهم شروط المعجزة أن تكون من جنس ما نبع فيه القوم .

ويمكننا القول : إن الجماعة اللغوية العربية في عصر ما قبل الإسلام وعصر النبوة قد توافقت على سلوك لغوي مكنها من استعمال اللغة على نحو فصيح ، وإن اختلفت لهجاتها ، فاختلاف لهجات الجماعة اللغوية العربية لا ينقض هذا التوافق في السلوك اللغوي العربي لتلك الجماعة آنذاك . واللهجة المقصودة هنا ليست تلك المقابلة للمستوى الفصيح من الاستعمال اللغوي لأي لغة ، بل اللهجة عند الجماعة العربية حينذاك تعني اللغة الفصيحة ؛ فلهجات العرب : أي لغاتها الفصيحة . هذا ما أكده الحديث الشريف المشهور " أنزل القرآن على سبعة أحرف " ^(٦٩)

^(٦٦) د. عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - ص ٤٢ . وانظر كذلك د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبية - ص

. ٩٦

^(٦٧) راما ن سلدن - النظرية الأدبية المعاصرة - ترجمة / جابر عصفور - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - د. ت - ص

. ١٦٥

^(٦٨) د. محمد العبد - اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة : بحث في النظرية - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع -

القاهرة - ط ١ - ١٩٩٠م - ص ٣٦ .

^(٦٩) انظر : المسند - ج رقم (٨٦٣ / ٨٦٤ / ٨٦٥) .

وقد فسر كثير من العلماء أن المراد بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن الكريم : لغات العرب الفصيحة . فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال " أنزل القرآن على سبع لغات ، منها خمسة بلغة العجز من هوازن . قال : والعجز : سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وهؤلاء كلهم من هوازن ، ويقال لهم عُليا هوازن ، ولهذا قال أبو عمر بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني بني دارم" (٧٠) ، ونزول القرآن على هذه اللهجات أو اللغات الفصيحة دليل دامغ على أنها جميعها قد وصلت إلى مستوى مثالي في السلوك اللغوي بين أفرادها ، أقره القرآن الكريم ونزل به ، بل تحداهم فيه أيضا ، ولو لم يكونوا كذلك لما تحداهم القرآن الكريم .

ويبدو أن الجماعة اللغوية العربية تلك تتميز بهذا عن أي جماعة أخرى ؛ ذلك أن اللهجات في اللغات الأخرى منها الفصح ومنها غير الفصح ، أما الجماعة العربية التي نزل فيها القرآن الكريم فقد كانت لهجاتها أو لغاتها فصيحة (٧١) .

نستطيع ، إذن ، أن نزعم أن الجماعة اللغوية العربية آنذاك قد كانت متجانسة في سلوكها اللغوي بقدر كبير، وإن لم يكن تاما فلا نستطيع الزعم أن التجانس والتوافق كانا تامين مطلقين ، فهذا الأمر تنقضه البديهة . ولذا لم يؤد هذا التجانس أو التوافق إلى إهمال التنوع والتفرد في السلوك اللغوي بين أفراد هذه الجماعة، ونظرة على شعر شعراء المعلقات تكشف عن هذا التنوع والتفرد في السلوك اللغوي لهؤلاء الشعراء وهذا ما كشفت عنه دراسة أسلوية لشعر هؤلاء الشعراء (٧٢) .

ورسول الله ﷺ كان فردا من أفراد هذه الجماعة ، وسلوكه اللغوي في حديثه الشريف جزء من السلوك اللغوي لهذه الجماعة آنذاك. إنه سلوك لغوي أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن. ويحاول الرافي، في إيجاز ، أن يصف فصاحة كلام النبوة وبلاغته وتبيان مكانته فيقول: "وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء" (٧٣) .

(٧٠) ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق: عبد العزيز عبد الله بن باز وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي . دار الحديث . القاهرة . ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٨٨ م - ج ٩ ، ص ٣٣ .

(٧١) ولذلك يُخطئ العلماء من يقول : اللغة العربية الفصحى ، بل عليه أن يقول الفصيحة، فليس فيها أفصح وأقل فصاحة . بل فصيح وغير فصيح .

(٧٢) هذه الرسالة هي رسالة دكتوراه للباحث /أحمد عثمان محمد رمضان وهي بعنوان : المعلقات : دراسة أسلوية مخطوطة بكلية الآداب . جامعة المنوفية ١٩٩٩ م . وكشفت هذه الدراسة عن أنه - رغم التزام شعراء المعلقات بعمود الشعر العربي - قد كان لكل شاعر منهم أسلوبه الخاص المتفرد الذي يمتاز به عن غيره .

(٧٣) الرافي- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية- مكتبة مصر- د.ت ص ٣٢٣ .

وجميع شهادات البلاغيين ، فيما نعلم ، ترقى بكلام النبوة إلى المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم في الفصاحة والبلاغة ، على الرغم من أنه لم يكن يعنى الإبداع الأدبي قصداً، ولم يكن صنعة كما يصنع الشعراء والكتاب ، فينظرون فيما كتبوا ، فينقحون ، ويثبتون ، ويحذفون ويضيفون مثبتين ما يختارون على ما يستبعدون ، فيأتي كلامهم بليغا ومتكلفا، وإنما كان كلامه طبعاً وفطرة أصيلة يصدر عن تلقاء نفسه واختيار ذهنه فكره مؤيدا بالوحي، ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا "توفيقاً من الله وتوفيقاً" (٧٤) .

كيف لا ؟ وقد كملت فيه أداها حلقة ، وآلتها طبعاً ، يرفدهما التأييد بالوحي ، فكان مما وُصِفَ به رسول الله ﷺ: " أنه كان ضليع الفم " (٧٥) أي : واسع الفم ، ومما وُصِفَ به رسول الله ﷺ نفسه قوله " بُعثت بجوامع الكلم " (٧٦) ، فكان ﷺ كأنما ألفاظ اللغة قد أفضت إليه بأسرارها ، وكاشفته بمخاطبتها " وكأنما [كما وصف الرافي] " قد وضع يده على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه " (٧٧) ، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً وأسدهم لفظاً وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب ، ولو عرف لقد كانوا نقلوه وتحذثوا به ، واستفاض فيهم " (٧٨) .

لعل هذا كان مصدر عجب بعض صحابته - رضوان الله عليهم - كما جاء في قولهم له: " يا رسول الله ! كأنك كنت ترعى بالبادية " (٧٩) . وإذا تعلق الأمر بالنشأة اللغوية للنبي الكريم ﷺ " فإنه تقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً وأعذبها بيانا، فكان مولده في بني هاشم وأحواله من بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر ومنشأه في قريش، ومتزوجاه في بني أسد ومهاجرته إلى بني عمرو ، وهم الأوس والخزرج ، ولم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ، ولذا قال ﷺ: " أنا أفصح العرب بيد أي من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر " (٨٠) .

(٧٤) المصدر السابق - ص ٣٢٤ .

(٧٥) أخرجه الترمذي - في المناقب - ج رقم (٣٦٤٦) و (٣٦٤٧) .

(٧٦) المسند - ج رقم (٧١) .

(٧٧) مصطفى صادق الرافعي . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ص ٣٢٨ .

(٧٨) المصدر السابق . ص ٣٢٤ .

(٧٩) المسند - ح رقم (١٠) .

(٨٠) مصطفى صادق الرافعي . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ص ٣٢٦ . - ص ٣٢٧ . والحديث الذي استشهد به الرافعي ولم يوثقه هو في : كشف الخفاء للعجلوني . طبع مكتبة التراث . ج ١ ، ص ٢٣٢ . وفي : الشفا : للقاضي

أقول إذا كان تعلق أمر فصاحته بالنشأة اللغوية ، وهو أمر صحيح ، فإننا نرى جانباً آخر أهم ينطق به قوله تعالى ممتنا على رسوله الكريم ﷺ: "وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" [النساء / ١١٣] فلم يُعلم - يقينا حق يقين أنه ﷺ تعلم شيئاً عن العرب ، ولا كان لهم علم بدراسة الفوارق البلاغية بين الألفاظ أو في التراكيب أو في الصور والأخيلة ، بل لم يكن لأحد من قومه شيء من هذا القبيل دراسة وتعلماً فقد كانت ثقافة القوم ثقافة سماعية ، ينطلقون في لغتهم وأشعارهم وبياناتهم عن حس لغوي وبلاغي فطري ، وإن اختلف هذا الإحساس من فرد إلى آخر.

وعلى الرغم من أن " الحديث " - كما ينبئ عنه مدلوله اللغوي- يتناول الكلام العادي الذي يجري بين الناس في مخاطباتهم اليومية، وهي لا تستدعي فكراً عميقاً، وقصداً أدبياً ، فإن " أحاديث الرسول ﷺ وإن كانت فيض الخاطر، وعفو البديهة ، يبدو عليها أثر الإلهام ، وسمعة العبقرية، وطابع البلاغة "^(٨١)، رغم انتمائها إلى الإبداع الشفاهي - إن صح التعبير- أو إلى الثقافة الشفاهية الخالصة، وليس هناك ما يناقض أن تحقق بعض هذه الثقافات الشفاهية ، التي لم تكن تكتب إبداعها، مستوى أدبياً رفيعاً وأول هذه الثقافات الشفاهية: الثقافة العربية على عهد ﷺ " فالثقافة العربية ثقافة شفوية الأصل ، ومتحولة إلى كتابية منذ مطلع الإسلام إلى اليوم "^(٨٢).

ولقد برهن " بعض الباحثين على أن الثقافات الخالصة الشفاهية يمكن أن تولد أشكالاً فنية للقول، فيها حدق ومهارة " ^(٨٣) وإذا كان حديثه ﷺ لا يحتاج إلى تلك البرهنة ، فصاحته وبلاغته أمر يقر به أعداؤه قبل أتباعه ، ولذا افتخر ﷺ فخر المتواضعين على العرب جميعاً ، كما في الحديث السالف ، وكما في قوله : " أنا أفصح من نطق بالضاد " ^(٨٤) وقوله : " أنا أفصحكم " ^(٨٥) ولم ينقل أحدٌ أن أحداً قد أنكر عليه ذلك .

عياض-مكتبة الفارابي. ج ١ ، ص ١٧٨ . وهذا الطرف من الحديث في موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف . إعداد أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني غلول-دار الفكر-بيروت-ط١-١٣١٠هـ/١٩٨٩-المجلد الثاني-ص٥٠٧ .

^(٨١) أحمد حسن الزيات - تاريخ الأدب العربي ، دار الثقافة - بيروت - ط ٢٨ . ١٩٧٨ م ، ص ١١١ .

^(٨٢) والتر. ج . أونج-الشفاهية والكتابية-ترجمة د/حسن البناء عاز الدين-عالم المعرفة الكويت-العدد (١٢٨) - ١٤١٤هـ/١٩٩٤ م ص ١٤ . وانظر أيضاً: ص: ٤٤ .

^(٨٣) المصدر السابق - ص ١٨ .

^(٨٤) محمد بن علي الشوكاني: الفوائد المجموعة للشوكاني - مكتبة السنة المحمدية - ص ٣٢١ . وكشف الخفاء للعجلوني- ج ١ - ص ٢٣٢ . وهذا الطرف من الحديث بموسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف - المجلد الثاني- ص ٥٠٨ .

ولقد كان كلامه ﷺ وهو كلام شفاهي منطوق فحسب - يسمعه المسلمون فتكون له عندهم قوة القانون المحرك والمسيطر. لا، بل الملزوم أيضاً، بل حتى إشاراته ﷺ^(٨٦)؛ فلقد كانت كلماته، ولم تكن إلا منطوقة، ذات قوة تأثير سحرية، وهكذا الكلمة في الثقافة الشفاهية، ولا سيما إن صدرت من قبل رسول الله ﷺ^(٨٧). ونعتقد أن مصدر قوة الكلمة عنده ﷺ راجع إلى أمور:

الأول: بلاغته وفصاحته .

وثانيها: شخصيته التي تفرض سلطانها على من يسمعه.

وثالثها: الأمر الإلهي بتعظيم قوله ﷺ، والأخذ به وعدم الاعتراض عليه، لأنه رسول مؤيد بالوحي. قال تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء / ٦٥] ^(٨٨).

وإن كان الحديث النبوي الشريف، في الأصل، نصاً شفاهياً أي منطوقاً، إلا أنه صار بعد تدوينه نصاً مكتوباً، بل أصبح بين أيدينا!! بل من المستحيل استعادته. ولا خلاف على أن بلاغة المتكلم يدخل فيها - إضافة إلى فنيات الكلام وبلاغته - طريقة الأداء، والتعبيرات الجسدية والإشارات ونظرات العينين، ونبرة الكلام ونغمته، وإيقاعه الحي الحياتي المعيش. والانفعال والترديد أو التكرار .

وهي كلها أدوات بلاغية تصاحب التعبير بالكلمات المنطوقة، ولها دورها الهام في عملية التواصل اللغوي الفعال، وعليها يتوقف المغزى من الكلام المنطوق. إن كلمة واحدة مثل "يا سلام"، بحسب هذه الوسائل المصاحبة للتعبير الكلامي كالنبر أو التنغيم، يمكن أن يفهم منها - على حسب الموقف والسياق - معنى الاعتراض، أو معنى الاستحسان، أو حتى الرفض، أو المناجاة؛ فللهجة الكلام ونبره وتنغيمه أو طريقة إلقائه أثرها الفعال في تحقيق التأثير والاستمالة والإقناع، ولعلنا نذكر أن بالي قد اهتم بالكلام المنطوق أو "الكلام العادي"، بل كان يرى أنه "أجدر بدراسة اللغوي من التعبيرات الأدبية المنتقاة" ^(٨٩).

^(٨٥) ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق - طبعة بيروت - ج ٢ - ص ١٣١. وهذا الطرف من الحديث ورد بموسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف - المجلد الثاني - ص ٥٠٨.

^(٨٦) راجع المسند - ج رقم (٥٨٥) و (٥٤٦) و (٥٤٧) .

^(٨٧) انظر: والتر . ج. أوج - الشفاهية والكتابية - ص ٩١.

^(٨٨) راجع المسند - ج رقم (٥٥٠) .

^(٨٩) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي - ص ٩٤.

وكم كنا نتمنى أن نستطيع أن ندرس حديثه ﷺ أسلوبياً على أساسه المنطوق، ولكن، أتى لنا ذلك؟! والحديث وصل إلينا مكتوباً، فافتقد كثيراً من الوسائل البلاغية المصاحبة لبلاغة الكلام الذي صار نصاً مكتوباً.

وإذا حاولنا أن نضرب مثلاً قد تساعدنا بعض الأحاديث. نخذ، مثلاً، حديثه ﷺ الذي رفض فيه زواج علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من بنت أبي جهل، على فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - فصعد المنبر وقال: "إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني يربيني ما أراها، ويؤذي بي ما آذاها"^(٩٠).

فلا شك أن طريقة الأداء لم تكن هادئة على الإطلاق، بل فيها حرارة وانفعال، وإثارة، ولاشك أن الضغط على بعض الجمل، أو المقاطع، قد كان حاداً، ولاسيما في قوله: "فلا آذن"، ثم تكراره. حاول أن تتخيل تعبيرات أو ملامح وجهه ﷺ في نطق هذه الجملة المكررة ثلاثاً. مع ما توحى به من حسم وقطع - من الله علينا برؤياه - ثم حاول أن تتخيل هذه الملامح وهو يقول: "إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي". وقد حذف أو أسقط اسم علي - كرم الله وجهه - ويشير إليه بابن أبي طالب، وكأن لهجته لهجة تحذير وإشعار بزوال مكانته إن هو أقدم على هذه الخطوة، فتصبح العلاقة علاقة نسب، ثم لتتخيل كيفية نطقه عليه الصلاة والسلام بخاتمة الحديث "فإنما هي بضعة مني..."، فمن اليقين أن نعمتها لم تكن كذلك التي كانت في قوله: "فلا آذن...".

ويدلنا على أنه ﷺ كانت له طريقة خاصة في إلقاء الكلام أو الحديث، تختلف عن طريقة معاصريه، حديث عائشة - رضي الله عنها - وقد سمعت أبا هريرة ﷺ يسرد الحديث^(٩١) "أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض"^(٩٢) فأنكرت عليه قائلة: "إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسرديكم"^(٩٣)، ووصفت طريقته ﷺ في الحديث بقولها: "إن النبي كان يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه"^(٩٤): تريد بذلك أنه ﷺ كان يتحدث حديثاً "فصلاً، فهما تفهمه القلوب"^(٩٥)، وتحفظه الذاكرة بحيث إن المرء لو حاول "عدّ كلماته أو مفرداته أو حروفه لأطاق

(٩٠) المسند ج - رقم (٤٥٦).

(٩١) انظر: ابن حجر - فتح الباري - ج ٦، ص ٧٠٣.

(٩٢) المصدر السابق - ج ٦ - ص ٤٠٧.

(٩٣) المسند - ج رقم (٧٢٥).

(٩٤) أخرجه البخاري - في المناقب - باب صفة النبي ﷺ - ج رقم (٣٥٦٧).

(٩٥) ابن حجر - فتح الباري - ج ٦ - ص ٧٠٤.

ذلك وبلغ آخرها ، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم " (٩٦) . يقينا أن تلك الطريقة كانت ذات تأثير فائق في نفوس متلقيه ، وفي حفظهم حديثه بلفظه - في أغلبه ، وإنما روي بعضه بمعناه - فيما نظن - لتأخر عصر تدوينه .

ولذا، فإننا نؤكد على ضرورة وضع هذه الخاصية الشفاهية للحديث في الاعتبار عند التحليل الأسلوبي لأهميتها، وإن كان بعض الباحثين قد يحتج علينا بعدم الموضوعية؛ فإن هذا أصل الحديث "، ولا يمكننا تجاهله. وأنت تسمع الحديث من خطيب موهو يحسّ بما يقول؛ فتأثر أكثر به ألف مرة مما إذا قرأته في كتاب، ويشهد لهذا القرآن الكريم؛ فسماعه من قارئ مجيد يحسنه يختلف تماما عما إذا قرأته .

نستطيع ، بعد هذا ، أن نقول إن الحديث - برغم انتمائه للكلام المنطوق - قد سما إلى مستوى أدبي رفيع يضعه كثير من البلاغيين ، بل جميعهم ، بعد أسلوب القرآن وبلاغته .

أي مفهوم للأسلوب أنسب في مقارنة الحديث النبوي؟؟ وأية منهجية أوفق ؟

إذا كان الباحث قد حاول أن يجذّر بعض ما ينبغي أن يكون منطلقاً أو ضوابط في دراسة أسلوب النبي الكريم ﷺ فمن الطبيعي ، منهجياً ، أن نعرف : عن أي مفهوم للأسلوب سنصدر وبأية منهجية من مناهج التحليل الأسلوبي سنقارب الحديث النبوي الشريف .

لعلنا قد أضحنا ، منذ البدء ، إلى تعدد تعريفات الأسلوب وتنوعها وكثرتها ، إلى درجة قد تبعث على الحيرة ، على أن ثمة تعريفاً يمكن أن نتناول ، على أساسه ، حديث المصطفى ﷺ وقد آثرناه على مفاهيم أخرى يعرف بها الأسلوب كمصطلح " الانحراف " أو " المفارقة " ، أو اعتبار الأسلوب " إضافة " ، أو " تضمناً " ، أو " قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارئ " (٩٧) ، ذلك أن هذه المفاهيم ستدخلنا في جدال نظري ، و اعتراضات منهجية ، نحن في غنى عنها ، ولذا؛ فالتعريف المختار فهو أن الأسلوب اختيار؛ وذلك لسببين : الأول : أنه التعريف الأقرب إلى القبول ؛ حيث يتفق وطبيعة عملية الإبداع .

(٩٦) المصدر السابق - نفس الجز ونفس الصفحة .

(٩٧) انظر: د. سعد مصلوح-الأسلوب:دراسة لغوية إحصائية-دار البحوث العلمية-الكويت-ومطبعة حسان بالقاهرة - ١٥ - د . ت - ص ٢٦ : ٢٩ . و عدنان بن ذريل- النصُّ والأسلوبية: بين النظرية والتطبيق- من منشورات اتحاد الكتابالعرب،سورية - ٢٠٠٠م-ص٤٣/٤٤ . والكتاب منشور في موقع اتحاد الكتاب العرب

الثاني: أنه يضرب بجذوره في التراث النقدي العربي، إن لم يكن قد كان مدركا إدراكا تاما، على ما سنبين .

فأما من حيث السبب الأول؛ فإن تعريف الأسلوب باعتباره " اختياراً أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة " (٩٨) - يعد أفضل تعريفات الأسلوب وأكثرها فائدة في استجلاء الأسلوب الأدبي، بل أصبح - كما يقول برند شبلنر - قائما بوصفه نظرية أسلوبية شاملة (٩٩) .

وهو ، كذلك، يتفق مع طبيعة النصوص المنطوقة ، أو الشفوية، فإننا نقوم بعملية الاختيار، وإن كانت تتم ذهنيا وتلقائيا، "بواسطة نطق معين وتلوين صوت بنغمة معينة، وذلك كله يوظف لتحقيق غرض بعينه. بعبارة أخرى: نحن نجري على المواد اللفظية التي يوفرها لنا النظام العام للغة اختياراً، وهذا الاختيار الذي نجريه أو نقوم به لا يكون فقط تبعاً للإدراك الذي لدينا نحو هذا النظام، ولكن يقوم -أيضا- تبعاً للإدراك الذي نتوقع أن يكون لدى المرسل إليه تجاه النص" (١٠٠) .

ومن ثم ؛ فإن المنشئ ليكون ذا تأثير على المرسل إليه المستقبل للرسالة ، فإن عليه أن يقوم بعملية اختيار دقيقة للمفردات التي تعبر عما يريد أدق وأصدق تعبير؛ بحيث يستطيع أن يثير في المتلقي نفس المشاعر والأحاسيس والمعاني التي أثارته . وهو ما يوجزه جينانج ، حين يعرف الأسلوب بأنه " طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير " (١٠١) ، وهذا يعني أن المنشئ ، يعي دور المتلقي ، عند الإبداع ؛ فهو يتوخى الدقة والإيضاح بغية التأثير على القارئ أو المتلقي ، وإقناعه .

(٩٨) د. سعد مصلوح- في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية-ص ٢٣. وانظر: الأسلوبية والأسلوب للمسدي-

ص ٧٤/٧٥. والأسلوب لأحمد الشايب. ص ٥٢، حيث يقول: وكذلك يكون الاختيار الذي يتناول الأفكار

والصور والعبارات عملاً أسلوبياً هو طريقة الصياغة التي تتصرف في تلك العناصر بما تراه أليق بموضوع الكلام

(٩٩) انظر: برند شبلنر- علم اللغة والدراسات الأدبية-ص ٨٥. وهو ما عبر عنه د. شكري عياد أيضاً حين اعتبر أن

نظرية الأسلوب كلها تعتمد على فكري " الاختيار " و " الانحراف ". انظر: شكري عياد -مدخل إلى علم الأسلوب-

ص ٤٥ .

(١٠٠) د. رجاء عيد - البحث الأسلوبي : تراث و معاصرة - ص ٩٧ .

(١٠١) د. البدر اوي زهران - أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث- دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٢ م -

ص ٨ . وانظر: الأسلوب- لأحمد الشايب- ص ٤٤ . واللافت للنظر أن العبارة وردت، كما هي ، عند الأستاذ

أحمد الشايب ، دون إشارة إلى جينانج .

ولذا ؛ فإن الباحث يرى أن النظر إلى الأسلوب بوصفه اختياراً، وإن كان يركز على المبدع أو المنشئ أو المرسل ؛ فإنه لا يهمل دور القارئ مخالفاً بذلك ما يراه شبليز؛ إذ قال: "ومن الواضح أن القارئ لم يدخل في إطار هذه النظرية الأسلوبية" (١٠٢) ؛ فإن الأديب أو الشاعر أو الكاتب حينما يقوم باختيار غرضه وموضوعه ورمزه اللغوي وتركيبه وفي النهاية أسلوبه ، إنما يكون القارئ في وعيه أثناء عملية الاختيار هذه ، فهو إذا تحدث تحدث إلى سامع أو كتب أو أبداع لقارئ يريد هو أن يؤثر فيه؛ فالاختيار كما هو مرتبط أساساً بالمبدع فهو، كذلك، محكوم بالمتلقي وبالמושوع والموقف والسياق.

إننا في النهاية نكتب ونبدع ليقراً الآخرون، وليس هذا فحسب ، بل قد يكون الإبداع في حد ذاته من أجل الآخر ، المتلقي، فما من نص دون قارئ ، ولا من مبدع دون قارئ ؛ فهو، إذن، مفهوم يربط بين الخطاب والمخاطب والمخاطب، بل بمقام الخطاب والسياق (١٠٣).

ولعل أهم ما يتميز به هذا المفهوم للأسلوب :

- ١- أنه يتفق مع التفريق بين " اللغة " و " الكلام " في علم اللغة ؛ فالكلام المستعمل مأخوذ أو مختار من محتوى اللغة، "هكذا يفهم الأسلوب على أنه ظاهرة للكلام من دون أن يفقد الارتباط باللغة ، حيث يختار من محتواها " (١٠٤).
- ٢- أنه يشير ، بقوة ، إلى أن عملية الإبداع تتم بوعي ؛فهو، إذن، ظاهرة إيجابية، على أنه لا ينبغي أن نفهم من ذلك - بالنسبة للرسول ﷺ، ولكتيرين من الأدباء - أنه كان يستعرض أولاً كل إمكانات نظام اللغة ثم يختار منها (١٠٥) بل هي عملية اختيار فطرية دون تأمل أو تفكر ، بل كانت تتم سليقة أو ملكة وطبعاً ، فلم يكن يقصد الإبداع الأدبي ، ولا عُرِف عنه أنه كان يهذب كلامه أو ينقحه أو يعيد النظر فيه ، بل أحاديثه كلها عفو الخاطر والبديهة .
- ٣- أن كتيرين من نظروا إليه بوصفه الأكثر نجاعة في التحليل الأسلوبي ، (١٠٦) حيث يمكن أن يطبق على الحديث الشريف للصياغات المتعددة الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديثه

(١٠٢) برندينبلر - علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ٨٥ .

(١٠٣) د. سعد مصلوح-في النص الأدبي : دراسة أسلوبية إحصائية - ص٢٤.

(١٠٤) برندينبلر - علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ٨٥.

(١٠٥) انظر: د. مصطفى سويف-الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة-دار المعارف-القاهرة-ط٢-١٩٥٩م-٢٩٤.

(١٠٦) انظر: د. صلاح فضل-علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته-الهيئة المصرية العامة للكتاب-ط٢-

بل في الحديث الواحد أحيانا ، وهذا يعني إمكانات اختيارية كانت تتم ، تلقائيا ، حسب الموقف والسياق ونوعية المتلقين .

٤ - أننا يمكننا استرجاع الإمكانيات الاختيارية التي كان من الممكن استعمالها ثم أبعدت أو تركت ، وذلك بالرجوع إلى نظام اللغة حينئذ ، وإن كنا لا نرى اختلافاً بيناً في نظام اللغة العربية حينئذ عنه اليوم ، اللهم إلا في الاستعمال اللغوي المتحقق اليوم .

أما من حيث السبب الثاني ؛ فإن البحث يزعم أن تصور الأسلوب على أنه عملية اختيار يقوم بها المنشئ من بين مجموعة البدائل المتاحة في النظام اللغوي ، تلك التي تكون أشد صلة بالموضوع و أصدق دلالة على ما يريد - يزعم، إن لم يكن حقا ، أنه كان تصوراً مدركاً لدى النقاد العرب القدامى ، بل كانوا يصدرون عن وعي به في بعض أحكامهم ، وإن بشكل غير مباشر، وليس القصد من ذلك إثبات شرعية للتراث النقدي العربي أو إظهار أسبقية له في المصطلح . وإن كان حقا مشروعا ، بل إقرار ملاحظة جديرة بالتسجيل حتى لا نتنكر لتراثنا النقدي؛ إذ ليس من المقبول أن نطالبهم بإنتاج نظرية كتلك النظرية الأسلوبية ، متجاهلين الفوارق الزمنية الثقافية والمعرفية .

وأزعم ، كذلك ، أن الناقد العربي ، قديما قد أعرض عن ذكر الأساس النظري لهذا التصور إدراكا منه أن متلقيه في هذه العصور - ولاسيما في عصر ما قبل الإسلام وما بعده - قد كان يعي ويدرك سر إطلاقه حكما من الأحكام النقدية على شعر شاعر ما أو تفضيله مثلا على غيره . أو لنقل : سر تفضيله اختيارا ما على اختيار آخر ، أو تفريقه بين اختيارات يتيحها نظام اللغة ، بل يوازن بين الاختيار المتشكك أسلوبيا ، والاختيار المستبعد أو المتروك .

ولعل الناقد العربي لم يكن يضطر للخوض في الإطار النظري لحكمه النقدي إلا إذا اعترض عليه ، ولعل موقف حسان بن ثابت من النابغة الذبياني - "وقد كان حكم العرب في الجاهلية ، وكانوا يضربون له قبة من آدم بسوق عكاظ ، فتأنيه الشعراء ، فعرض عليه أشعارها فيقول فيها كلمته [حكمه النقدي] فتسير في الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها" (١٠٧) إذ هم يدركون تماما أن الحكم الذي أصدره حكم له معايير الموضوعية التي سكت عنها لعلمه أنهم يدركونها - أقول لعل موقفه منه ، وقد فضل الخنساء عليه، إذ أنشدته قصيدته التي تقول فيها :

إن صخرنا المولانا وسيدنا
وإن صخرنا إذا نشئوا لنحار

(١٠٧) سعد الدين التفتازاني (مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني) - شرح السعد المسمى مختصر المعاني في علوم البلاغة - تح/محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة - د. ت - ج ١ - ص ٦ .

وإن صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار (١٠٨)

خبر دليل على وعي الناقد العربي ، حتى في عصر ما قبل الإسلام ، بمفهوم الاختيار ، وأن جودة الأسلوب إنما إلى الاختيار الملائم من المواد اللفظية أو الوسائل اللغوية التي يوفرها نظام اللغة ، بحيث ينبغي على الشاعر أن يكون ذا حساسية ، يستطيع بها أن يلاحظ حسن التناسب والتلاؤم بين المعاني التي يريد أن يعبر عنها والاختيارات التي يقوم بها بالفعل من بين الإمكانيات اللغوية المتاحة مفضلاً إيها على غيرها .

إن الشاعر لا " يعد شاعراً ؛ لأنه فكر أو أحس ، ولكن لأنه عبّر ، وهو ليس مبدع أفكار ، فإنما هو مبدع كلمات [مختارة اختياراً أنسب و أوفق وأبلغ وأصدق في التعبير عما يحس ويشعر] ، وكل عبقريته تكمن في اختراع الكلمة ؛ فوجود حساسية غير عادية لا يخلق شاعراً كبيراً " (١٠٩) ؛ فشاعريته مردها إلى أسلوبه المتفرد الذي تجسده بلاغته ودقته في عملية الاختيار التي يقوم بها . فأما أن تَقْصُرَ اختياراته اللفظية عن الدقة والمناسبة عن معانيه وأفكاره التي من أجلها قام بعملية الاختيار ، فليس له أن يطالب بأن يكون أشعر ممن اتصفت اختياراته بهذا من الشعراء .

ويرى جاكسون أساسيين يستخدمان في التنسيق - ولعله يذكرنا بالنظم عند عبد القاهر الجرجاني - هما الانتخاب والتأليف ، وقدّم مثلاً على ذلك كلمة (طفل) ، " ولتكن هي موضوع الرسالة : فالمتكلم يقوم بعملية اختيار من بين مجموعة الأسماء الموجودة والمتشابهة تقريبا ، مثل : طفل ، صغير ، وليد ، رضيع . وتتبادل هذه الكلمات تقريبا من بعض وجهات النظر ، ولكي يُعلّق ، فيما بعد ، على هذا الموضوع ؛ فإنه يقوم بعملية اختيار لفعل من الأفعال الدلالية المناسبة ، مثل : نام ، نعس ، رقد ، غفا . وتتألف الكلمتان المختارتان في السلسلة الكلامية . وهكذا نرى أن الانتخاب يقوم على قاعدة التعادل والتماثل ، والتنافر ، والترادف والتضاد ، بينما يقوم التأليف وبناء المتواليّة على المجاورة ، والوظيفة الشعرية تسقط مبدأ التعادل المحوري للانتخاب على محور التأليف " (١١٠) .

ونستطيع أن نقول : إن حديث بلاغيينا القدامى عما يقتضي الحال ذكره إنما هو حديث عن تلاؤم الأسلوب - بالاختيار المناسب مما يتيح نظام اللغة - مع الموقف والسياق أو المقام ، وكذلك مع حال المخاطب ، بل كانوا مطبوعين على ذوق وخبرة وفطرة يعرفون من خلالها ما

(١٠٨) ديوان الحسناء.

(١٠٩) جون كوين-بناء لغة الشعر-ترجمة وتقديم د. أحمد درويش-دار المعارف-القاهرة-٣-١٩٩٣ - ص ٥٥ .

(١١٠) جيرو - الأسلوب والأسلوبية - ص ٧٦ .

يسحن اختياره في موطن ما أو غرض ما ، ولا يحسن في موطن آخر ، كما في حديثهم عما " يحسن أن يستعمل من الكلام في موطن كالفخر دون غيره ، وبما يجمل بالمتكلم أن يهجره ولا يعمد إليه " (١١١) بالاختيار .

وإلا ؛ " فمن أين للعرب معرفة مثل ذلك ؟ ومن الذي قال لهم : إن الأسياف والجفنان يدلان على أقل العدد ؟] وأن اختيارهما هنا في بيتي حسان للدلالة على الكرم ، وبلوغه الغاية، دون اختيار السيوف والجفان [؟ وإن معنى " يلمعن " دون معنى " يبرقن " ، وإن مناسبة " الدجى " لكرم الضيفان أشد من مناسبة " الضحى " ، ونحو ذلك " (١١٢) .

ولعلنا ، في هذا السياق ، لا نرى ضرورة لتأكيد على أن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد استخدم مصطلح " النظم " وهو يعني به " الأسلوب " ، فهذا قد لاحظته قبلنا أستاذنا د. شفيع السيد، حين ذهب إلى أن عبد القاهر قد استخدمه في كتابه استخداماً دالاً في موضع واحد (١١٣) يعني قول الجرجاني: " الأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه " (١١٤) .

وقد استخدمه عبد القاهر مرة أخرى استخداماً دالاً أيضاً في قوله " فلم تستطع ذلك [أي التوفيق بين الألفاظ المسحّعة وبين معانيها التي جعلت أردافاً لها] إلا بعد أن عدلت عن أسلوب إلى أسلوب أو دخلت في ضرب من المجاز، أو أخذت في نوع من الاتساع، وبعد أن تلطفت على الجملة نوعاً من التلطف " (١١٥) ؛

فالعدول عن أسلوب إلى أسلوب آخر ، أو ما يسمى في الدراسات الأسلوبية بالانحراف أو المفارقة ، يقوم في جوهره على عملية الاختيار أو التفضيل أي اختيار طريقة ما في النظم أو الأسلوب وتفضيلها على أخرى لا تحقق ما يتوخاه من توفيق بين اللفظ المسجوع ومعناه . اللهم إلا أن يقصد أستاذنا بالاستخدام الدال ذكر التعريف نصاً .

على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أن د. شوقي ضيف قد أشار إلى هذا الاستخدام للفظ " النظم " بمعنى الأسلوب ؛ يقول: " ونرى عبد القاهر في مواطن كثيرة من " الدلائل " يبدئ ويعيد في إبطال أن يكون مرد الفصاحة إلى اللفظ أو المعنى - كما زعم الجبائي المعتزلي، وإن لم يصرح باسمه ،

(١١١) سعد الدين التفتازاني - شرح السعد - ج ١ - ص ٨ .

(١١٢) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

(١١٣) انظر: د. شفيع السيد - الاتجاه الأسلوبى في النقد الأدبى - ص ١٢ . وأرجع إثار عبد القاهر مصطلح " النظم " على " الأسلوب " إلى عدم شيوع كلمة أسلوب بين علماء عصره . انظر: ص ٢٣ .

(١١٤) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(١١٥) السابق - ص ٦٢ .

إنما مردها إلى "النظم" ، كما قال الباقلاني الأشعري ، أو بعبارة أخرى : إلى الأسلوب وخصائصه وكيفياته ^(١١٦) .

وما يعيناه في المقام الأول - ونحن بصدد اختيار مفهوم للأسلوب ، وتحديدته بأنه " اختيار " - هو كلام الجرجاني عن الأسلوب في إطار هذا المفهوم . مر بنا أن عبد القاهر عرّف " الأسلوب بأنه " الضرب من النظم و الطريقة فيه " وما يلفت النظر في هذا التعريف هو أنه لم يعرف " النظم " بالأسلوب ، بل عرّف الأسلوب على أنه ضرب من النظم وطريقة فيه : أي نوع من النظم وطريقة من طرائقه ؛ فالأسلوب على هذا خاص ، والنظم عام بالأساليب جميعها ، وكل طريقة في النظم ، أو ضرب منه ، له أسلوب خاص .

وهذا الذي التفتنا إليه نظن أنه أمر هام ؛ إذ الرجل أقام كتابه كله على نظريته في النظم ، وذهب من خلاله يبسطها ويوضحها ويقررهما ، والرجل - كذلك - دقيق إلى أقصى حد في كلامه ، وذلك واضح من خلال أسلوبه الجدلي في الكتاب ، الرجل على وعي تام بما يقول ويكتب . فلو أنه قال : " والأسلوب هو النظم " لكان قد ساوى بين المصطلحين وجعلهما مترادفين ، لكنه قال : " الأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه [أي في النظم] فمعنى هذا أن النظم لديه أعم من الأسلوب فالأسلوب فردي خاص ، والنظم عام شامل كل الأساليب والطرق الفردية .

هذا معنى ينبغي أن نلتفت إليه جيدا . ثم إن طريقة النظم قائمة ، لاشك ، على الاختيار ؛ فإن المبدع أو المنشئ عندما يريد التعبير عن أفكاره ومشاعره إنما ينظر في الإمكانيات والوسائل التي يوفرها إطار هذه اللغة أو نظامها العام ، فيختار من بينها بعض الاختيارات ثم يقوم بتشكيل هذه الاختيارات على مستوى التركيب أو التصوير ، مما يشكل له أسلوبا فريدا أو نظما خاصا به ؛ وإن كانت عملية الإبداع ، لا تتم - في أغلب الأحيان - على هذا النحو النظري ، فهي عملية مركبة معقدة .

عبد القاهر والأسلوب:

وعن هذا الفهم ، نحسب أن عبد القاهر الجرجاني كان يصدر في فهمه " الأسلوب " و لاسيما إذا توقعنا ، باهتمام ، عند نصوصه التطبيقية التي ما يفتأ يُثني بها نصوصه النظرية ؛ ليؤكد فكرته ويزيدها إيضاحا وتبيانا . ويعيننا، في هذا السياق، نصان:

^(١١٦) د. شوقي ضيف - البلاغة وتطوير وتاريخ - دار المعارف - القاهرة - ط ٨ - د. ت - ص ١٦١ .

الأول : نعهده نصا نظريا ، والثاني نعهده نصا تطبيقيا: أما الأول: فهو قوله : " وإذا قد عرفت أن مدار النظم على معاني النحو ، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها و نهاية لا تجدها ازديادا بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض... وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّي في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج ، إلى ضرب من التحير والتدبر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها، ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها ، إلى ما لم يتهدّد إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توحيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم" (١١٧).

يمكننا، من قراءة نص الجرجاني هذا قراءة واعية، أن نستخلص أنه يميز بين أسلوب شاعر وآخر ، بناء على وعيه بأن أسلوب كل شاعر إنما يتشكل من خلال عملية الاختيار التي يقوم بها ، وأن معيار التمييز بين أسلوب وآخر يكون - بناء على هذا - بمراعاة عدة اعتبارات ، تصب كلها حول عملية الاختيار ، وهي :

١- وقوف المبدع أو الشاعر على الغاية أو الغرض الذي من أجله يقوم بعملية الاختيار ؛ " فالأغراض التي يوضع لها الكلام " غايته وهدفه الذي يختار ، لأجل التعبير عنه ، ما يريد مما تسمح به قواعد اللغة وأحكامها أو نظامها .

٢- أن تقوم عملية الاختيار هذه على ملاءمة الاختيارات لما أريد التعبير عنه ، من ناحية ، وأن تتناسب وتتلاءم هذه الاختيارات في علاقاتها بعضها ببعض، وهو ما أسماه عبد القاهر " ارتباط هذه الكلم [المختارة] بعضها ببعض " (١١٨) أي : علاقة الكلمات بعضها ببعض في الاستعمال المتحقق بالفعل ؛ فيعرف : هل هناك تناسب بين كلمة وأخرى وارتباط أولاً ؟ أو بين جملة وأخرى أو تركيب وآخر ؟ وهل هذا الاختيار المستعمل بالفعل كان الأنسب والأدق والأبلغ أو لا ؟ .

٣ . معرفة كيف تشكلت هذه الاختيارات أسلوبيا . هذا ما نفهمه من عبارة " وكيفية مزجها ، لها وترتيبه إياها " .

(١١٧) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٨٧ / ٨٨ .

(١١٨) السابق - ص ٤٥ .

إن هذه الاعتبارات هي جوهر عملية الاختيار القائمة على الوعي الذهني بالإمكانات اللغوية المتاحة والتي يهتدي إليها الشاعر بطبعه وفكره وحسه الشعري ، وبقدر إصابته يكون أسلوبه. ذلك ما يفهم من قوله " قد تهدي في الأصباغ ... إلى ضرب من التخيير والتدبر " . وهو يؤكد على أهمية عملية "التخيير" أو الاختيار في أكثر من موطن في كتابه كقوله في سياق التفريق بين "الضم" والنظم أو الأسلوب، وأن مرد المزية فيه إلى الاختيار. يقول: "واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعضه، سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك، لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق" (١١٩) .

ويضرب لذلك أمثلة من الكلام الذي لم يقصد فيه سوى " الضم " كقول الجاحظ " جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا [ثم يقول] " فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضل إذا وجب ، إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه ، دون نظمه وتأليفه ، وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخيير سبيلاً، وحتى تكون قد استدركت صواباً" (١٢٠)

ولعل هذا يذكرنا بمقولة الجاحظ الشهيرة التي أشار فيها إلى أهمية اختيار اللفظ في سياق تعريفه الشعر ، ونعني بها قوله " وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير" (١٢١) ، ولعل تلك الإشارة هي التي انطلق منها عبد القاهر في معنى الاختيار .

وأما النص الثاني الذي نفهم منه أن الجرجاني كان على وعي تام بعملية الاختيار وأهميتها للأسلوب ، وإن لم يكن قد قدم لها نظيراً كذلك الذي نجده عند الأسلوبيين المحدثين، فهو قوله : - حين عرض لقوله تعالى : (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم / ٤] - فذكر أن السابقين لم يروا فيه من مزية سوى ما فيه من استعارة ، نافيةً أن تكون المزية في قوله تعالى هذا " مجرد الاستعارة "، ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده ، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك

(١١٩) السابق - ص ٩٦ .

(١٢٠) السابق - ص ٩٨ .

(١٢١) الجاحظ-الحيوان- تحقيق وشرح/عبد السلام هارون-مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه -القاهرة-٢م ١٩٦٥م - ج ٣ - ص ١٣٢ . وهذه المقولة تعني أن الشعر بناء يصاغ من الاختيارات التي يقوم بها الشاعر من ألفاظ اللغة ، مشكلاً لها في نسيج خاص أو بناء خاص أهم ما يمتاز به أنه تصوير بالكلمة. ويهمننا هنا إدراك الجاحظ أهمية الاختيار في عملية التشكيل الإبداعي .

النسبة إلى ذلك الأول ، إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم: " طاب زيد نفساً ... " وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه. وذلك أنا نعلم أن " اشتعل " للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ ، كما أن " طاب " للنفس ... وإن أسند إلى ما أسند إليه. يبين أن الشرف كان ؛لأنه سلك فيه هذا المسلك ، وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسند به إلى الشيب صريحاً فتقول " اشتعل شيب الرأس " أو " الشيب في الرأس " ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟... فإن السبب [في مزية الأسلوب القرآني] أنه مفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذ من نواحيه، وأنه قد استغرقه ، وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به وهذا مالا يكون إذا قيل " اشتعل شيب الرأس ، أو " الشيب في الرأس "، بل لا يوجب اللفظ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة" (١٢٢) .

إذا تمعنا في نص الجرجاني هذا - وقد اختار لأسلوبه صيغة المسبب للمجهول احتراماً وتقديساً للنص القرآني ، " ولكن لأن سلك بالكلام ... ما ذلك الشيء من سببه " ندرك أن كلام الجرجاني يعني ، ببساطة ، أن النظم القرآني اختار هذه المفردات بهذا التركيب مفضلاً إياه على نسق آخر أو تركيب آخر يتيح نظام اللغة العربية قد افترضه الجرجاني افتراضاً .

نحن، إذن، أمام اختيارين : اختيار مستعمل بالفعل آثره القرآن الكريم ، واختيار أو اختيارات أخرى مستبعدة أو متروكة : الأول: قوله تعالى " واشتعل الرأس شيباً " . والثاني: مفترض، وهو " واشتعل شيب الرأس " ، أو "اشتعل الشيب في الرأس" .

وعبد القاهر ، في براعة غريبة، يقارن بينهما مقارنة أسلوبية مستخدماً ما يسمى في الدراسات الأسلوبية بمنهج استرجاع الإمكانيات المتاحة في نظام اللغة متخذاً المقارنة أداة منهجية ، فيقارن بين التركيب الذي آثره القرآن بالاختيار وبين التركيب الآخر الذي استبعده القرآن من خلال استرجاعه من نظام اللغة ما يمكن أن يكون تركيباً مستبعداً في هذا الإطار ، أفلا يعني هذا أن عبد القاهر الجرجاني كان على وعي تام بما جعله الأسلوبيون المحدثون مفهوماً للأسلوب باعتباره اختياراً ، وإن كان بعضهم قد اعتبره نظرية أسلوبية شاملة (١٢٣) .

(١٢٢) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ١٠٠ - ١٠١ .

(١٢٣) انظر : الهامش رقم (٩٩) .

إنه ليس من قبيل التعصب ، كما نعتقد ، أن نقول: إن عبد القاهر الجرجاني قد سبقهم ، وأن ما ينقص عبد القاهر وغيره من نقادنا هو أن يتيسر لتناجهم النقدي من يتوفر عليه لإنتاج نظرية نقدية عربية تتبع من صميم تربتنا وثقافتنا وعقيدتنا، وأحسب هذا عملاً فوق طاق فرد بعينه.

عبد القاهر لا يترك لقارئه مفراً من الاقتناع بوجهة نظره ، ولذا لم يقف عند حدود المقارنة بل أتبعها بنتيجتها مبينا القيمة الأسلوبية للأسلوب القرآني كاشفاً عن خصائص الأسلوب القرآني في هذه الآية - وتلك مهمة الدارس الأسلوبي : أن يسعى لاكتشاف أسباب الاختيار سواء على مستوى الكلمة أو على مستوى التركيب أو على مستوى الصورة الفنية : لماذا اختار هذه الكلمة وليس تلك ، ولماذا هذا التركيب لا غيره ؟- يقول: " فإن قلت: فما السبب في أن كان" اشتعل " إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل ؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البيونة ؟ فإن السبب أنه يفيد... الخ".

وهو لم يسغ على الأسلوب القرآني قيمة أسلوبية ليست فيه، بل كشف عنها فحسب ، واستطاع أن يقرأ إشارات ذلك الأسلوب، وتلك سمة في الأسلوب الفني - كما يصفه الدكتور رجاء عيد - " المحتوي على عناصر فنية ثرية ... يستطيع الفنان شاعراً أو ناثراً أن يشير [بها] إلى القارئ لم كانت تراكيبه على هذا النسق بالذات ؟ وما دلالتها على المغزى الخاص للذي يرمي إليه ؟ وأي مقصد يريد لإبراز تكثيف فني داخل عمله الفني " (١٢٤) ؟

على أننا ينبغي أن نشير إلى إشارة هامة في نصي الجرجاني السابقين. تلك التي تتعلق بإدراكه الفروق الأسلوبية بين تركيب وآخر وأن أي تركيبين، ولو كانا في معنى واحد، فلا بد أهمما يختلفان دلالياً، وأن معيار التفرد في ، الأساليب حينئذ، في: فنية الصياغة، والاختيار، واستدراك الصواب- كما سماه - ذلك ما ينطق به قوله: "وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخير سبيلاً، وحتى تكون قد استدركت صواباً " (١٢٥).

ولعل هذا الكلام من عبد القاهر قوي الدلالة على إدراكه الواعي أهمية عملية الاختيار في الإبداع الفني، التي تظهر متحسدة في الصياغة الفنية التي يقوم بها المبدع شاعراً أو ناثراً مستقبيا ومستبعدا اختياراته على أن تقوم عملية الاختيار هذه على الدقة والوفاء بالمعنى المراد.

وهذا ما يعنيه عبد القاهر بقوله "وحتى تكون قد استدركت صواباً"؛ فلا نظن أنه يعني به مجرد الصواب النحوي أو اللغوي ، فهذا أمر يدهي لأي أسلوب، وإنما يعني ، فيما نظن،

(١٢٤) د. رجاء عيد- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط٢ - د. ت- ص ١٣٤.

(١٢٥) انظر الهامش - رقم (١٢٠) .

الصواب الذي به يتحدد المعنى ويصير دقيقاً لا لبس فيه بلطف في النظم، أو لنقل إنه الصواب، أو به الإصابة في الاختيار الدقيق المعبر تعبيراً وافياً عما يريد المتكلم أو المبدع أن يعبر عنه بحيث يفهم بالمعنى المراد وفاء تاماً .

ربما يُظن أن الباحث يلوي عنق نص عبد القاهر هذا ! كلا؛ فإن من تطبيقات عبد القاهر الأسلوبية الأخرى ما يشهد لهذا الفهم ، ذلك حين عرض قوله تعالى في شأن المنافقين (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المنافقون/ ٤]؛ فالآية الكريمة تفصح عن حال المنافقين وتفصح بخت ما تنطوي عليه قلوبهم من توجس وخيفة؛ فهم لا يسمعون صوتاً في العسكر أي صوت؛ قد يكون نداء منادٍ ينشد ضالة ، وقد يكون من أثر انفلات دابة، إلا ظنوا أنهم يرادون بذلك. وقوم هذا شأنهم هم العدو الحقيقي الذي يخشى خطره، ولا يؤمن جانبه فعليك بالحدز الشديد منهم" (١٢٦).

لولا أن النظم القرآني أو الأسلوب القرآني قد توحي الدقة في الاختيار: من حيث المفردات اختار كلمة "العدو" معرفة دون "عدو" ، واختار تركيب جملة "هم العدو" تركيباً مفصلاً عن الجملة السابقة ، عن عطفها كأن - يقال في غير القرآن- " فهم العدو" مثلاً ، أو " وهم العدو" العطف ، واختار إضمار ما تعلق به حرف الجر " على " دون إظهار اسم يتعلق به كأنه يكون التركيب لمفترض ، كما افترضه عبد القاهر نفسه _ " يحسبون كل صيحة عليهم واقعة وهم عدو فاحذرهم " - لولا أن الأسلوب القرآني أتى على النمط الذي اختاره دون التركيب المفترض - لرأيت الفصاحة - كما يقول عبد القاهر - قد ذهبت عنه بأسرها أو لنقل بتعبير الأسلوبيين المحدثين: لولا أنه أتى على هذا النمط المختار لما فهم منه المعنى الدقيق : أي كون هؤلاء المنافقين هم العدو الأول والحقيقي للنبي ﷺ والمؤمنين ، في عصره ، وبعد عصره ، ولو أن الآية الكريمة أتت على النمط المفترض من عبد القاهر، لم يلزم منه أن يكون المنافقون العدو الأول والحقيقي الذي تنبغي الفطنة إليه والحرص الشديد من سمومه الخفية ، بل يصبحون عدواً من ضمن الأعداء، وبالتالي تقل درجة الحدز منهم والاهتمام بشورهم ، ويقل الاكتراث بخيانتهم .

ولا يخفى أن الأسلوب القرآني حين أثر أسلوب القصر في قوله: "هم العدو" في سياقه أقوى في الدلالة وأشد بياناً أنهم هم أخطر الأعداء على الإطلاق ، إذ هم هم معول المهدم الأول في بيان الجسد الإسلامي الكبير .

(١٢٦) د. شفيع السيد - الاتجاه الأسلوبى فى النقد الأدبى - ص ٣٦.

ونستطيع بعد هذا كله أن نزعم زعماً يقوم عليه الدليل والبرهان : أن عبد القاهر لم يكن على وعي بمعنى الاختيار ، فحسب ، بل كان أيضاً على وعي تام بأن مرد التفرد والتميز أو الاختصاص - كما سماه هو - يرجع إلى عملية الاختيار : أي أن عملية الاختيار من بين الرموز اللغوية المتاحة من جانب المنشئ ، وكيفية تشكيله هذه الاختيارات هي التي تميز نصاً من النصوص أو أسلوباً عن أسلوب ، وعن طريقها نستطيع أن ننسب كلاماً إلى صاحبه أو قصيدة إلى صاحبها أو عملاً أدبياً إلى صاحبه إذا استطعنا أن نتعرف الخصائص الأسلوبية الخاصة به. وهذا إدراك بالحقيقة الأسلوبية التي تقر بـ "تفرد أسلوب شخص عن أسلوب " شخص آخر ... يقول دي لوفر : إن الأسلوب الفردي حقيقة بما أنه يتسنى لمن كان له بعض الخبرة أن يميز عشرين بيتاً من الشعر إن كانت لراسين ... أم لكرناى وأن يميز صفحة من النثر إن كانت لبلزك ... أم لستاندال " (١٢٧).

ذلك هو الزعم . فأما الدليل فهو قول عبد القاهر ، وأما البرهان فتطبيقه : ومن حيث قوله فهو " اعلم أنا إذا أضفنا الشعر ، أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله ، لم تكن إضافتنا له من حيث هو كلم وأوضاع لغة ، ولكن من حيث تُوحى فيها " النظم " الذي بينا أنه عبارة عن توحي معاني النحو في معاني الكلم . وذاك أن من شأن الإضافة الاختصاص ... وإذا نظرنا وجدنا [أي الشعر] يختص به من جهة توحيه في معاني الكلم التي ألفه منها ، ما توخاه من معاني النحو ، ورأينا أنفس الكلم معزل عن الاختصاص ... [فإذا] قلت " امرؤ القيس قائل هذا الشعر " [فانظر] من أين جعلته قائلاً له ؟ أمن حيث نطق بالكلم وسمعت ألفاظها من فيه ، أم من حيث صنع في معانيها ما صنع ، وتوحي فيها ما توحي ؟ " (١٢٨).

ولنتوقف، قليلاً، عند كلمة "التَّوْحِي" . التوحي: التحري، وأصل الفعل وَحَى، و" السَّوْحِي" : الطريق المعتمد، وقيل هو الطريق القاصد ، وقال ثعلب : هو القصد ... يقال: تَوَحَّيْتُ الشَّيْءَ أَتَوَحَّاهُ تَوْحِيًّا إذا قصدتَ إليه و تعمدتَ فعله وتحريت" (١٢٩).

وواضح أن أصل المعنى اللغوي للكلمة يدور حول تحري الدقة في الاختيار في أمر من الأمور عن قصد وتعمد. أي عن وعي إدراك كامل من جانب من يقوم بعملية التوحي، ونحن على يقين أن

(١٢٧) د. عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - ص ٦٠ .

(١٢٨) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٣٦٢ / ٣٦٣ .

(١٢٩) ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت ٢٠٠٠م - ط ١ - المجلد الخامس عشر - مادة " وحى " - ص ١٧٦ .

عبد القاهر كان على دراية تامة بهذه الدلالة اللغوية للكلمة في أصل وضعها. هذا أمر بديهي، وقد انطلق منه عبد القاهر .

هذا واضح أيضا من قوله " يختص به من جهة تَوَحُّيهِ في معاني الكلم التي ألفه منها ، ما توخاه من معاني النحو " فالقائل يقوم بعملية اختيار من أوضاع اللغة أو ألفاظها يؤثر من خلالها ألفاظا على أخرى، ثم يقوم بعملية تأليف لها يتحرى فيها أن تنطلق من معاني النحو وأحكامه . إنه ، بعبارة أخرى ، على وعي تام بأهمية عملية الاختيار التي يقوم بها الشاعر أو الأديب أو المتكلم أيا كان ، متحرراً فيها الدقة في اختياراته المستبقة من أوضاع اللغة التي تشكل المادة الخام لإبداعه ، وهي لازمة لها في ذاتها، وإنما في كيفية تشكيلها داخل النص المؤلف، وعملية الاختيار هذه على مستوى الكلمات أو مستوى التراكيب، أو مستوى الصورة هي التي تجعل للأديب طريقة خاصة في الأسلوب .

والتشبيه الحسي الذي استعان به عبد القاهر يقوي هذه الفكرة ويقررهما في النفوس؛ فليست المزية في الاختصاص بالفضة في نفسها، من حيث هي مادة خام للصانع، أو للإبريسم للناسج ، وإنما المزية من جهة " العمل أو الصنعة " : أي من جهة تدخله في هذه المادة باختيارات معينة في الخيوط والألوان ، قائمة على استبقاء ما يناسب منهما واستبعاد ما لا يتناسب وفي تشكيله هذه الاختيارات أو "صناعتها"، بحيث ينتج في النهاية ثوباً ليست المزية فيه لمادته الخام، بل في كيفية اختيارات الناسج أو تقنية تشكيله هذه الاختيارات.

وكذلك الحال للصانع ... وكذلك الحال مع الشاعر ، أو المنشئ عموماً ، فمرد التميز أو التفرد ليس في اختياراته رموزا لغوية أو ألفاظاً معينة وتفضيلها وإيثارها بالاختيار على أخرى من الوعاء اللغوي فحسب، بل في كيفية تشكيلها أسلوبياً في نصه أيضاً.

تطبيق الجرجاني يعد أقوى برهان على ما نذهب إليه:

عندما توقف عند نسبة قول امرئ القيس: " فقا نبك من ذكرى حبيب ومترل " تساءل : هل يمكن أن يتفق تشكيل البيت هكذا دون اختيار هذه الكلمات ودون أن يقصد امرؤ القيس إلى " هذا الترتيب من غير أن يتوخى في معانيها ما تعلم أن امرأ القيس توخاه من كون " نبك " جواباً للأمر، وكون " من " معدية له إلى ذكرى ، وكون " ذكرى " مضافة إلى " حبيب " ، وكون " مترل " معطوفاً على " حبيب " أم ذلك محال ؟ " (١٣٠) . ولذا، يُعقب الجرجاني بقوله : " وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء [والترتيب المقصود: ترتيب الكلمات في النص ، والترتيب قائم على

(١٣٠) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٣٦٣ .

الاختيار الدقيق منطقياً [حتى يكون هناك قصد إلى الصورة وصفة ، إن لم يُقدّم فيه ما قُدّم ، ولم يُؤخّر ما أُخّر ، وبُدئ بالذي تُتّى به ، أو ثنى بالذي تُثّث به ، لم تحصل لك تلك الصورة ، وتلك الصفة . " (١٣١) .

إن مقدرة منشئ القول، بحسب قول عبد القاهر هذا، تكمن في قدرته على "الترتيب الخاص داخل البناء اللغوي الذي مبعثه دقة النظر في اختيار وحدة على وحدة ، وتفضيل شكل على شكل ، وبراعته في مسلكه بها داخل التركيب، أي في موقعها، ودقته في توحي معاني النحو فيما بينها من علاقات ، وما يستتبعه من مطابقة ، أي براعته في استفادته من طاقات اللغة حسب قوانينها " (١٣٢) بما يسم أسلوبه بخواصه الأسلوبية المميزة له التي تأتي أصلاً من علمية الاختيار التي يوقعها المبدع على مخزونه المعجمي، لينتقي منه " (١٣٣) .

وأحسب أنه قد بات ظاهراً أن عبد القاهر لا يعني بقوله : "حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة إن لم يقدم ... " ، سوى القصد في الاختيار من جانب المنشئ إلى صورة وصفة أي : إلى طريقة في الكلام تميزه عن غيره بصفات أو بسمات أسلوبية تختص بهذا الكلام دون غيره. هذه الخصوصية أو تلك السمة الأسلوبية مردها إلى طريقة كل منشئ في الاختيار و الترتيب و التشكيل ؛ فإمكانات اللغة كثيرة ، لا حد لها ، لكنها لا تتصف بتلك الخصوصية أو بسمة أسلوبية" حتى تُؤلّف ضرباً خاصاً [كما يقول عبد القاهر] من التأليف ، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب" (١٣٤) .

وهذا ما ينطق به تناول عبد القاهر بيت الفرزدق التالي -

في سياق بيان المعاني التي تختص بقائل دون آخر الذي يقول فيه:

وما حملت أم امرئ في ضلوعها * أعق من الجاني عليها هجائيا

(١٣١) السابق - ص ٣٦٤ .

(١٣٢) د. البدر اوي زهران- أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث- ص ١٢ .

(١٣٣) د. محمد عبد المطلب- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم- الشركة المصرية العالمية للنشر و

التوزيع- لوانجمان - ط ١ - ١٩٩٥ م - ص ٨٤ .

(١٣٤) عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة في علم البيان - تعليق محمد رشيد رضا- دار الكتب العلمية - بيروت

١ - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م - ص ٢ . وانظر كذلك : في الالتقاء بين وجهة نظر عبد القاهر التحليلية مع

وجهة النظر الأسلوبية. د. سعد أبو الرضا : في البنية والدلالة : رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية- منشأة

المعارف بالإسكندرية - د. ت - ص ٢٣ ، ٢٤ .

يقول عبد القاهر: " فإنك إذا نظرت لم تشك في أن الأصل والأساس هو قوله " وما حملت أم امرئ " وأن ما جاوز ذلك من الكلمات إلى آخر البيت، مستند إليه ، ومبني عليه ، وأنتك ، إن رفعته ، لم تجد لشيء منها

بيانا ولا رأيت لذكرها معنى ، بل ترى ذكرك لها إن ذكرتها هديانا " (١٣٥).

فمناطق العطاء الأسلوبية للكلمات ، إذن ، في المكان الذي تقع فيه من التأليف والنظم ، لا من حيث هي كالم مفردة ، أي " في ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض " (١٣٦) ' وهذا يعني ، ببساطة ، أن أي تغيير في الأسلوب أو حذف ، أو إضافة أو تحوير يجيل نسبة البيت إلى صاحبه أو النص إلى صاحبه " حتى إنك لو حذفت الباء التي هي ضمير الفرزدق في آخر كلمة منه ، وهي " هجائيا " ، لم يكن الذي تعقله منه مما أراده الفرزدق من سبيل " (١٣٧)؛ " لأن غرضه تهويل أمر هجائه ، والتحذير منه ، وأن من عرض أمه له ، كان قد عرضها لأعظم ما يكون من الشر " (١٣٨).

وهذا يؤكد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن عبد القاهر كان على دراية تامة بأن الكلمات أو الرموز اللغوية أو أوضاع اللغة - كما يجب عبد القاهر أن يسميها- هي مواد الاختيار الأولى التي اختار من بينها الفرزدق ، وأنها امتزجت في ذهنه وعقله بمشاعره وأحاسيسه امتزاجاً، خرجت به على هذا الضرب من النظم الذي تطابقت فيه الصورة الذهنية مع الأسلوب اللفظي، أو الصورة اللفظية التي تأخت وتعلقت فيها الكلمات بعضها ببعض تأخياً وتعلقاً صار به أسلوبه كأنه قطعة اجتزئت من فكره ونفسه .

واقراً معي ، بعد هذا كله، كلام عبد القاهر، وهو يقول: "وإذا كان هذا كذلك [أي إذا كان إطلاق " البلاغة " و " الفصاحة " والبيان يقصد به إتيان المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته واختيار اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه المزية] فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرأً ونهياً واستخباراً وتعجباً ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة - هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به " (١٣٩)

(١٣٥) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٥٤٤ .

(١٣٦) السابق - ص ٤٥ .

(١٣٧) د. البدر اوي زهران- أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث- ص ١٨ .

(١٣٨) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٥٣٥ .

(١٣٩) السابق - ص ٤٤ . وما بين القوسين كلام عبد القاهر نفسه في ص ٤٣ .

الكلمات قبل التأليف أو الاستعمال كثيرة ومتاحة ، ولكن اختيار كلمة معينة وإيثارها بالاستعمال دون صاحباتها أو أصدادها على ما بينهما من اتصال في المعنى لا بد أنه كان لأن الكلمة المختارة بالاستبقاء أدل على المعنى المراد من المستبعدة ، فنختار " الليث " مثلاً ونترك " الأسد " لكون " الليث " مثلاً أدل على السبع المعلوم من " الأسد " فهذا - كما يقول عبد القاهر - بصر نافذ بأهمية الاختيار في عملية الإبداع ، وإدراك واعٍ للفرق بين الكلمة في إطارها اللغوي ، وبينها في الاستعمال الفعلي .

أو ليس هذا التصور هو الذي ارتكز عليه كل اللسانيين بعد دو سوسير متأثرين بتفرقه بين " اللغة " كنظام من الرموز و" الكلام " ؟ وقد ظهر هذا في مصطلحات كثيرة أشار إليها المسدي ، " كاللغة " والخطاب " عند قيوم ، و" الجهاز " و" النص " ، عند هيا لمسلم ، وطاقة القدرة وطاقة الفعل عند تشو مسكي ، والنمط والرسالة عند جاكسون .

هذا ، إذن ، عبد القاهر قد سبقهم إليها . يشهد لما نقول شهادة الدكتور محمد مندور؛ حيث يقول عن سبق عبد القاهر هذا: " وفي الحق إن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية منقطعة النظير... مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه. هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناند دي سوسير الذي توفي ١٩١٣ م " (١٤٠).

ونظن ، إن لم يكن يقينا ، أن عبد القاهر كان يصدر في كثير من تحليلاته الأسلوبية عن وعيه بهذا المذهب أو التصور: اللغة كنظام ، اصطلاح له مصطلحا هو " معاني النحو وأحكامه " - والكلام الفعلي الذي ينشئه المتكلم متوخياً فيه هذه المعاني والأحكام أو القواعد واصطلاح عليه " النظم " ، وبدون هذا التوحي لا يوجد الأسلوب .

ولا يعني توحي معاني النحو توضيحي مجال الإبداع ، وطمس معالم التمايز بين الأساليب ، بل على العكس ، فإنما " النحو " فقط الإطار العام ولا يتطلب من المنشئ إلا أن ينطلق في إبداعه منسجماً مع قانونه ، ثم للمنشئ الحرية الكاملة في تصريف الكلام ، من خلال هذا النظام ، على وجوه وأنحاء لا حد لها .

وهذا ما عبر عنه رائد بارز من رواد الدراسة الأسلوبية العربية مبيناً العلاقة بين النحو والأسلوبية فقال: " إن النحو مجال القيود ، والأسلوبية مجال الحريات ، وعلى هذا الاعتبار ، كان النحو سابقاً في الزمن على الأسلوبية ، إذ هو شرط واجب لها ، فكل أسلوبية هي رهينة القواعد

(١٤٠) د. محمد مندور . النقد المنهجي عند العرب . دار النهضة مصر . القاهرة د . ت . ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

النحوية الخاصة باللغة المقصودة ، ولكنها مراهنه ذات اتجاه واحد ، لأننا إذا سلمنا بأن لا أسلوب بدون نحو، فلا نستطيع إثبات العكس فنقول : لا نحو بدون أسلوب. على هذا المقتضى يُحدّد لنا النحو ما لا نستطيع من حيث يضبط لنا قوانين الكلام ، بينما تفقوا الأسلوبية ما بوسعنا أن نتصرف فيه عند استعمال اللغة " (١٤١).

وهذا المجال هو الذي كان يعنيه الجرجاني ويهتم به ، مجال التصرف في استعمال اللغة مضبوطا بقواعد النحو ومعانيه ، فلم يكن يعني بتوحي معاني النحو وأحكامه سوى الاهتمام بما لا الالتزام الحرفي بها، والانطلاق في الاستعمال اللغوي للمفردات أو لأوضاع اللغة التي تتشكل داخل التراكيب ، ومن ثم داخل النص، من خلال هذا النظام العام . ولأن المنشئين يختلفون في استخدامهم اللغة ؛ فهم يتمايزون أسلوبياً؛ فلكل منشئ خصائص وسمات أسلوبية خاصة به ، ولو كان المعنى المعبر عنه واحداً بينهم ؛ فبعد القاهر يرى أن " المعنى الواحد تتعدد صورته وتختلف باختلاف الأسلوب قياساً على اختلاف الصنعة بين خاتمٍ وخاتم، ونقش ونقش، وأن المقصود، بالطبع، بالمعنى الذي يقع فيه الاختلاف، أصل المعنى أو الغرض، كما أن المقصود باختلاف الأساليب صفة وخصوصية ما تطرأ على هذا الأصل ، فيختلف بها عما كان عليه في حالته الأولى " (١٤٢).

وهذا كله يتضح جلياً من منهج عبد القاهر الجرجاني في التحليل الأسلوبي معتمداً المقارنة بين تركيب وآخر مفترض ، يقوم عبد القاهر نفسه بافتراضه ، في ذات المعنى ، من خلال ما يتيحه وعيه بالنظام اللغوي للغة العربية أو بين تركيب وآخر عند بعض العرب ؛ كما في تفريقه بين المفهوم من قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة/١٧٩] والمفهوم من قول بعض العرب " قتل البعض إحياءً للجميع " منطلقاً من استحالة أن يتطابق أسلوبان ، ولو كانا في معنى واحد ، وإن جاز ذلك التطابق بين نقشين أو سوارين أو شنفين ، بحيث يأتي كل منهما على صفته ، كما هي ، لا يغادر منها شيئاً ألبتة. يقول : " وليس يتصور مثل ذلك في الكلام ؛ لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه ، وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفته ، ولا وجه ولا أمر من الأمور ...

وذلك أن ليس كلا منا فيما يُفهم من لفظتين مفردتين نحو " قعد " و " جلس " ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر، نحو أن ننظر في قوله تعالى: (ولكم في القصاص

(١٤١) د. عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - ص ٥٦ .

(١٤٢) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي - ص ٤٨ .

حياة) [البقرة / ١٧٩] وقول الناس: "قتل البعض إحياءً للجميع". فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا: "إنهما عبارتان معبرهما واحد،" فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلاميين المفهوم من الآخر^(١٤٣).

وإذا كان عبد القاهر قد أكد مبدأ أسلوبياً بأن أي تركيبين أو "كلامين"، ولو كان معناهما واحداً، أو "مُعْبَرٌهما واحداً" - على حد تعبيره - لا يمكن أن تتفق فيهما الخصائص والسمات الأسلوبية؛ إذ لا يمكن أن يكون المفهوم من هذا هو المفهوم من ذلك، فلا بد، إذن، من فروق أسلوبية بين تركيب وآخر في نفس المعنى.

إذا كان عبد القاهر قد أكد هذا وسكت عن بيان هذه الفروق الأسلوبية معولاً على فطنة القارئ وحسه النقدي في إدراك هذه الفروق بين الأسلوب القرآني الذي اختاره القرآن الكريم وآثره "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" [البقرة / ١٧٩] والأسلوب الذي جاء عليه قول العرب: "قتل البعض إحياءً للجميع"، أو قولهم "القتل أوقى للقتل" أو قولهم "القتل أنفى للقتل"، أو قولهم "القتل أكف للقتل"^(١٤٤)؛ - فإننا يمكننا أن نستظهر هذه الفروق الأسلوبية التي يتركز معظمها حول السمات الأسلوبية التالية للأسلوب القرآني وهي: الدقة والوضوح في صياغة الأسلوب، والإقناع والتأثير، وبناء حكم شرعي في إعجاز أسلوبه؛ فمن حيث الدقة والوضوح، فقد بان من نظم أو أسلوب الآية الكريمة تحديد القتل المراد، باختيار لفظة "القصاص" بأنه القصاص لا غيره؛ لأنه عقوبة على جريمة مماثلة قد اقترفها القاتل.

بهذه الدقة وضح أن نوع القتل هو "القصاص" ووضح أيضاً على من يطبق هذا القتل، فلا يطبق إلا على القاتل نفسه لا غيره. بينما القتل، في الأسلوب الذي أورده الجرجاني عن العرب أو الذي ذكرناه عن أبي حيان الأندلسي؛ "أعم من أن يكون عقوبة على جريمة مماثلة، فيكون قصاصاً، أو يكون اعتداء على الآخرين من البداية، فيكون هو الجريمة ذاتها"^(١٤٥). ومن ثم؛ فإن القتل ظلماً وعدواناً أو لأي سبب، "لا يكون نافياً للقتل"^(١٤٦)، بل هو مدعاة له حينئذ.

وأما الإقناع والتأثير فهما ناتجان عن الدقة والوضوح السابقين، من حيث نصت الآية على أن القتل المراد هو القتل عقوبة على إزهاق نفس أخرى بغير وجه حق، فالعدل يقتضي أن

(١٤٣) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٢٦١ .

(١٤٤) أبو حيان - البحر المحيط في التفسير - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(١٤٥) د. شفيق السيد - الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي - ص ٥٤ .

(١٤٦) أبو حيان الأندلسي - البحر المحيط - ج ٢ - ص ١٥٤ .

يكون الجزء من جنس العمل ، فيطبق على القاتل لا على أحد من أقاربه أو أهله، وهذا ما يفهم من اختيار كلمة " القصاص"، لا " القتل " ، بل إن تركيب " قتل البعض " يفتح الباب واسعاً أمام العرف . " بعض " هذه غير محددة نوعاً لا عدداً ، قد يكون القاتل نفسه ، وقد يكون غيره من أقاربه أو هله أو من ضعفاء قومه ، فقد يضحي لأجل شريف أو سيد " ببعض " غيره ، وقد يكون البعض نفساً واحدة أو اثنتين أو ثلاثة ، سواء أكان اتفاقاً بينهم أم لم يكن ، بل إنهم " كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب ، حتى كاد يفني بكر بن وائل ، وكان يُقتلُ بالمقتول غيرُ قاتله ؛ فتثور الفتنة ، ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام بالقصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة ، وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل [نفسه لا غيره] ؛ لأنه إذا هم بالقتل ، فعلم أنه يُقتصُ منه ؛ فارتدع سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود ، فكان القصاص سبب حياة نفسين " (١٤٧).

وتفسير الزمخشري هذا لتأثير النص أو الأسلوب المتضمن هذا الحكم الشرعي ، على المخاطبين بهذا " النص " المعبر عنه بضمير الخطاب للجماعة " لكم " -إنما تناول تأثير النص على من يفكر في القتل ، فأما تأثيره على المتلقين عموماً سواء من يفكر في القتل ومن لم يفكر، أو من يقوم بأمانة القضاء أو من يتناول النص بلاغياً أو أسلوبياً... أي الجماعة المخاطبة بهذا الأسلوب، فإنه لم يتوقف عنده؛ فليست الحياة الحاصلة بسبب القصاص حياة لنفسين فحسب - كما قد رأى الزمخشري ، بل هي حيوات كثيرة قد تصل إلى قبيلة أو قبائل أو خلق كثير فتتكبر " حياة " ، والتنكير يفيد العموم والشمول - يفيد بأن الحياة المرادة إنما هي حياة للجماعة المسلمة كلها المخاطبة بهذا الحكم الشرعي . الحياة بكافة صورها وأشكالها المادية أو المعنوية .

نعم إن كلمة " إحياء " نكرة أيضاً ، وهي كذلك تفيد العموم والشمول ، لكن فرق بين " حياة " و " إحياء " ؛ فإن المعنى " الذي تبثه الكلمة الأولى في سياقها ، لا يتأتى مثله للكلمة الثانية، فكلمة " إحياء " في سياقها تقتصر على الحياة بمعناها المادي البيولوجي، على حين ترحب دلالة كلمة " حياة " في الآية لتشمل الحياة بمعناها المادي السابق، وتشمل كذلك الحياة المعنوية، حياة الأمن والدعة والهدوء. ثم إن تقييد كلمة " إحياء " بالجار والجرور " للجميع " في نظم العبارة مَرَقَّ غلالة الإبهام الرقيقة التي يضيفها التنكير على الأسماء ، ويجعل النفس تذهب في تفسيره كل مذهب ، ولم يحدث أي نوع من التقييد لكلمة " حياة " في النظم القرآني، فظل لتنكيرها إبهامه ودلالته

(١٤٧) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر) الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م - المجلد الأول - ص ٢٤٨ / ٢٤٩ .

الغنية"^(١٤٨). مناط الإقناع أن" القصاص " استحقاق على القاتل و حده جرّاء ما ارتكب من قتل متعمد ، وأن في تنفيذه حياة حقيقة لأهل القاتل و المقتول جميعاً، وهذا موطن التأثير في الحياة الحقيقة التي يمنحها المجتمع كله ، وليس في النظم العربية المقارنة ما يفيد هذا الاستحقاق على القاتل نفسه، بل ربما عليه أو على غيره وهذا ما يفقدها تأثيرها

أما الإعجاز الأسلوبي في بناء الحكم الشرعي فيتمثل ، في نظرنا ، في سعة الأسلوب؛ ليشمل - إضافة إلى المعاني السابقة الخاصة بتطبيق القصاص في جريمة القتل - القصاص في القتل، والقصاص في غير القتل ، وهو ما ليس موجوداً نهائياً في دلالة الأساليب العربية السابقة " فالقصاص أعم من القتل ، لأن القصاص يكون في نفس ، وفي غير نفس ، والقتل لا يكون إلا في النفس ، فالآية أعم وأنفع في تحصيل الحياة " ^(١٤٩). إنها بنت حكماً شرعياً في إعجاز أسلوبي يخص القتل وغير القتل باختيار كلمة واحدة هي " القصاص " ، ثم إن فيها إيجازاً لفظياً ومعنوياً ، فالمعنوي سبق إيضاحه ، واللفظي فيتمثل في خلو هذا الأسلوب القرآني من تكرار لكلمة القتل مرتين ، " والبلاغة . هي الإيجاز في موضعه " ^(١٥٠).

ثم أليس هذا الذي أشار إليه عبد القاهر ، بوضوح في تحليلاته الأسلوبية التي قام بها بنفسه أو التي سكت عنها ثقة بقارئه؟ وبينا نحن بعضاً، كما فعلنا قبل - أليس هذا هو جوهر مقولة هو كويت بأن" أي تعبير في لغة واحدة ينقلان معلومات متمثلة تقريبا ويتميزان في التركيب اللغوي يعدان مختلفين أسلوبياً " ؟ ^(١٥١) وبالتالي تسوغ مقارنة التعبيرات المتناظرة أسلوبياً.

فإذا ، افترضنا، جدلاً، وجود معنى ما ، وطلب من أكثر من منشئ أن يعبر عنه فسيأتي تعبير كل منهم مختلفاً عن " تعبير " صاحبه ، وبالتالي سيحدث نوع من " التغير " للمعنى تبعاً لإدراك كل منهم للفكرة ومدى ممازجتها فكره وقلبه وعاطفته ومشاعره مما سيبدو واضحاً في أسلوبه الخاص به المتشكل من اختياراته الخاصة وطريقة نظمه وصوغه هذه الاختيارات ؛ مما سيؤدي تلقائياً إلى اختلاف الأساليب بينهم تبعاً لاختلاف أشخاصهم . فالأسلوب جزء أصيل من فكرة صاحبه، ومشاعره، وأحاسيسه، لا يمكن أن يقتطع، أو ينتزع ، أو يحمل، أو يتحول، أو أن يقلد، أو أن يقتبس، أو أن يتبدل ^(١٥٢).

^(١٤٨) د. شفيح السيد - الاتجاه الأسلوبي - ص ٥٤ .

^(١٤٩) أبو حيان الأندلسي-البحر المحيط- ج ٢ -ص ١٥٥ .

^(١٥٠) د.عبد العزيز عتيق - في تاريخ البلاغة العربية-دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت- د .ت-ص ٦٥ .

^(١٥١) برندينبلنر- علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ٤٢ .

^(١٥٢) جيرو -الأسلوب و الأسلوبية -ص ٢٢/٢٣ . وانظر: برندينبلنر -علم اللغة والدراسات الأدبية-ص ٢٦ .

ومن ثم، فإن الاختيار النهائي الذي جسده أسلوب كل منهم إنما هو أسلوب يتفرد به، حيث اختار كل منهم من مفردات اللغة أو أوضاعها ووسائلها مفردات خاصة ووسائل خاصة، ولا يتوقع اختيارهم مفردات ووسائل واحدة، حتى وإن اختاروا مواد اختيار واحدة فلن تتطابق في الترتيب، فلا بد أن يوجد قدر من الاختلاف، وإن قل.

وهذا هو الذي دفع بعض الأسلوبيين، كما أسلفنا، إلى تعريف الأسلوب بأنه "اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين. ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثار المنشئ وتفضيله هذه السمات على سمات أخرى بديلة، ومجموعة الاختيارات الخاصة. منشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين" (١٥٣).

ونرى الانطلاق من هذا المفهوم للأسلوب، بعد أن أوضحنا أن عبد القاهر الجرجاني كان يصدر في نظريته للأسلوب أو النظم عن وعي تام بفحواه، وإن يكن مازال في هذا أدنى شك، فلنسمع إلى عبد القاهر وهو يحصر قصد الواسفين "للكلام" بأنه بليغ أو فصيح أو "بارع" في الاختيار من بين البدائل المتاحة ما هو أدق، بل تنصرف خصال "البلاغة" و"البيان" و"الفصاحة" إلى هذا المعنى فلنستمع: "ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي إلى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً، ويظهر فيه مزية" (١٥٤) وهو ما كان يعنيه دائماً بقوله: إن النظم هو "توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم" (١٥٥).

وأما عن المنهج المقترح، فنرى أن نفتفي أثر عبد القاهر، أيضاً، في منهجه القديم الجديد: القديم بتطبيقه إياه، على نحو ما أسلفنا، الجديد بتنظير علماء الأسلوب والمعروف لديهم. بمنهج استرجاع الإمكانيات المتاحة، كما سماه برنند شبلنر، وفحواه أنه يمكن من خلال الانطلاق من الوحدة اللغوية التي وقع عليها اختيار المؤلف أو المنشئ في النص - يمكن استرجاع الإمكانيات اللغوية الأخرى التي كانت متاحة أمام المنشئ عند الاختيار مما يسمح به النظام اللغوي، في الوقت الذي أبدع فيه النص.

ويمكننا التماس هذه الإمكانيات التي كان يتيحها النظام اللغوي حينئذٍ، ونزعم أنها ماتزال موجودة إلى اليوم، بافتراض هذه الإمكانيات التي كان يتيحها النظام اللغوي آنذاك، ثم عقد المقارنة

(١٥٣) د. سعد مصلوح - الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية - ص ٢٣.

(١٥٤) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ٤٣.

(١٥٥) السابق - ص ٣٩٢.

الأسلوبية بين تلك الاختيارات الافتراضية التي لم تستعمل أو استبعدت، وبين تلك الاختيارات المستعملة بالفعل في النص النبوي الشريف، أي نعقد مقارنة بين ما آثره النبي الكريم ﷺ بالاختيار فعبّر به ، وبين ما آثر تركه واستبعاده من إمكانات اللغة مما سنقوم بافتراضه .

وقد قدم عبد القاهر الجرجاني تطبيقات علمية لهذا المنهج، أشرنا إليها من قبل، يمكننا أن نستضيء بها؛ حيث كان يفترض من النظام اللغوي ما يمكن أن يعد اختيارات مستبعدة، سواء على مستوى الكلمة، أو على مستوى التركيب في المعنى الذي ورد به الاختيار المستقبلي أو المستعمل بالفعل، على النحو الذي تناول به قوله: (يَحْسُبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المنافقون/ ٤] .

وعلى هذا، فنقترح أن تقوم آلية الدراسة أو منهجية الدراسة الأسلوبية لأحاديثه ﷺ على المقارنة الأسلوبية بين الاختيارات المُتَحَقِّقَة بالفعل أو المستعملة: أي النص الذي ورد عن رسول الله ﷺ بلفظه، وبين الاختيارات المستبعدة المفترضة من جانب الباحث من خلال ما يوفره له النظام اللغوي، على اعتباره المعيار الذي على أساسه تم الاختيار (١٥٦).

على أن ثمة أمراً هاماً تجدر الإشارة إليه ، والتنبيه عليه ، وذلك أننا، وإن اتبعنا هذا المنهج، فليس معناه أن الرسول الكريم ﷺ كان يفكر، ثم يختار، أو أنه ينظر في اختياراته، ثم يقوم بتنقيحها على نحو ما يفعل الشعراء والكتاب والمبدعون عموماً .

ذلك من بديهية معروفة من الاصطلاح الذي أطلق على كلام رسول الله ﷺ ، وهو " الحديث "، فهو نموذج مقالي حي ينبض بالحركة والحياة يأتي طبعاً ، بكل ما يعنيه هذا المصطلح أي " الطبع "؛ فإن لم يكن كلامه ﷺ من قبيل الوحي ، فهو مؤيد بالوحي فلم يكن يراجع كلامه إلا حين يراجع أمين الوحي جبريل وهو ما يفهم من بعض الأحاديث (١٥٧)، وقد بينا من قبل أن ذلك لم يتزل بمرتبة الحديث عن المستوى الفني الرفيع بل جاء في أعلى مراتب البلاغة بعد القرآن الكريم . ولعل ذلك بمثل صعوبة كبيرة أمام الباحث، فإذا كان افتراض الفروض في تناول أعمال الأدباء والشعراء صعباً حيث يندر الحصول على مسودات لأعمالهم ، فإن الأمر نراه أصعب. وإذن، فليس أمام الباحث سوى الاجتهاد في افتراض الاختيارات، ثم اختبار هذه الفروض بعقد المقارنة بينها وبين ما تم اختياره بالفعل من جانبه ﷺ.

وثمة ملاحظات منهجية في المعالجة الأسلوبية لأحاديثه ﷺ:

(١٥٦) انظر د. جوزيف ميشال شريم - دليل الدراسات الأسلوبية - ص ٣٧.

(١٥٧) انظر: المسند - الحديث رقم (٣).

- أولها : أن الحديث الشريف قد يكون مروياً بمعناه ، وليس بأسلوب رسول الله ﷺ . أي ليس بلفظه هو . فهل سيدخل هذا في نطاق البحث الأسلوبي ؟

- ثانيها : أنه قد تكون للحديث روايتان أو أكثر، وقد تكون جميعها مروية بلفظه ﷺ .

- ثالثها : عن حجم الافتراضات المقترحة .

ومن حيث التساؤل الأول، فإن الأحاديث التي رويت بمعناها ، أو التي رواها الرواة بأسلوبهم - كما في الحديث الشريف-مثلا: " هـى النبي ﷺ عن بيعتين وليستين ... " (١٥٨) ، لا يجب أن تكون موضع عناية الباحث من حيث الأسلوب أو التحليل ؛ ذلك أن هدف الدراسة هو الكشف عن أهم الخصائص الأسلوبية لأسلوب رسول الله ﷺ ، في أحاديثه: أي الأحاديث التي رويت منسوبة بصريح اللفظ على أنها من لفظ رسول الله ﷺ . وتعبيره هو جرياً على تقسيم كثير من العلماء الذين قسموا الأحاديث إلى قسمين : قسم اعتنى بلفظه فروى به ، وقسم اعتنى بمعناه فحسب فروى بمعناه (١٥٩) .

وبديهي أن الرواة في القسم الثاني إنما يعبرون عما فهموه من كلام رسول الله ﷺ بكلامهم هم أو بأسلوبهم هم ؛ ففرق بين أن يقول الراوي ، مثلا، قال رسول الله ﷺ :

- " لا تتبعوا بيعتين . " ، أو: " إني أمهاكم عن بيعتين . " ، أو: " حذارٍ من بيعتين . " ، أو: " لا ينبغي لأمتي بيعتان " ، أو: " فلتجتنبوا بيعتين . "

ويعين أن يقول : " هـى رسول الله ﷺ عن بيعتين ... " ؛ فنحن لا ندرى ما الصيغة التي تحدث بها النبي الكريم ﷺ بالضبط . وهنا وإن كانت كل هذه الخيارات الأسلوبية المفترضة تدور وحول دلالة واحدة هي النهي ، إلا أن بينها فروقا أسلوبية . وحين يغيب الاختيار المستبقى من جانبه ﷺ فلا يمكننا أن نفترض الاختيارين : المستبقى والمستبعد ، وإلا صار تحليلنا ضرباً من التخمين والعبث، وقصدنا أن ندرس النص اللغوي الصحيح الذي نطق به على النبي ﷺ لا ما فهمه الرواة عنه (١٦٠) .

(١٥٨) المسند - ج رقم (٤٦٤) .

(١٥٩) د. رمضان عبد التواب - فصول في فقه العربية - مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض - ط ٢ - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م - ص ١٠٠ / ١٠١ .

(١٦٠) انظر: أنيس المقدسي-تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي -دار العلم للملايين بيروت- ط ٨ - ١٩٨٩ م - ص ٦٧ .

ولذا، نري أن يقتصر من يقارب حديث النبي ﷺ على الحديث الذي روي بلفظه ﷺ وعبارته هو، وليس الذي هو من رواية الرواة بالمعنى، لأن الحديث المروي بمعناه ألفاظه وعبارته تكون كلها، أو بعضها للرواة وليست له ﷺ.

وإن ورد أكثر من رواية لحديث عنه ﷺ، وكانت جميعها منسوبة صراحة إلى لفظ النبي ﷺ، وكان بينها اختلاف في الصيغ، فإن معنى هذا أن المقارنة حينئذٍ ستكون بين الصيغ المتعددة التي رويت عن النبي ﷺ مستعينين بما يمكن أن يستعان به من مثل أن يكون الحديث المقصود قد تحدث به النبي ﷺ في مناسبتين، إن حدث هذا، مما يمكن أن تهتدي به من سيرته ﷺ أو من تعليقات علماء الحديث. على أنه لا يجب أن نغير هذه الاختلافات بين الصيغ اهتماماً إذا غلب على ظننا أنها من فعل الرواة. إلا إذا أدت إلى اختلاف في الدلالة.

أما عن حجم الاختيارات المفترضة، فمن الواضح أن النظام اللغوي يستطيع أن يمدنا بكثير من الإمكانيات والوسائل التي يتيحها أمام المنشئ، فهل يسهل عقد المقارنة حينئذٍ أي حينما تكون الاختيارات المتاحة المفترضة كثيرة؟ يجيب أحد رواد الدراسة الأسلوبية بأن " التحليل الأسلوبي لا يمكن تنفيذه عملياً حينما تتوفر في النظام إمكانيات كثيرة " (١٦١)، ومن ثم فيكتفي ببعض هذه الاختيارات المفترضة لنقارنها في تحليلنا الأسلوبي بالمؤثرات الأسلوبية المختارة بالفعل.

هذا المنهج الذي حددناه ينبغي أن ينضبط بالضوابط التي حددناها من قبل في تعاملنا مع النص النبوي أو النص القرآني؛ على أننا نري، أيضاً، أن نعتمد على الإحصاء ما رأينا أن في الاعتماد عليه فائدة للدرس الأسلوبي لأحاديثه ﷺ.

(١٦١) برنند شبلنر - علم اللغة والدراسات الأدبية - ص ١٤٩.

مصادر ومراجع الدراسة:

١. أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف) - البحر المحيط في التفسير - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
٢. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيون- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف - إعداد/زغلول-دار الفكر - بيروت- ١٣١٠ هـ / ١٩٨٩ م . المجلد الثاني .
٣. أحمد حسن الزيات - تاريخ الأدب العربي ، دار الثقافة - بيروت - ط ٢٨ . ١٩٧٨ م .
٤. أحمد درويش - الأسلوب والأسلوبية : مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه - مجلة فصول القاهرية - العدد - ١٩٨٤ م .
٥. أحمد الشايب - الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية-مكتبة النهضة المصرية- ط ٨ - ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
٦. أنيس المقدسي-تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي-دار العلم للملايين -بيروت-ط٨- ١٩٨٩ م .
٧. برند شبلنر - علم اللغة والدراسات الأدبية : دراسة الأسلوب ، البلاغة ، علم اللغة النصي - ترجمة وتعليق / د. محمد جاد الرب - نشرة الدار الفنية للنشر والتوزيع - الرياض - ط ١ - ١٩٨٦ م .
٨. البدر اوي زهران-أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث-دار المعارف-القاهرة - ١٩٨٢ م .
٩. ابن حجر العسقلاني-فتح الباري بشرح صحيح البخاري- تحقيق:عبد العزيز عبد الله بن باز- وترقيم/محمد فؤاد عبد الباقي- دار الحديث - القاهرة - ط ١ - ١٤١٩ هـ / ١٩٨٨ م .
١٠. ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق - طبعة بيروت .
١١. ابن منظور -لسان العرب- دار صادر- بيروت ٢٠٠٠ م .
١٢. بيير جيرو-الأسلوب والأسلوبية - ترجمة منذر عياشي - مركز الإنماء القومي - بيروت .
١٤. الجاحظ- الحيوان - تحقيق وشرح- عبد السلام هارون - مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة- ط ٢ - ١٩٦٥ م .
١٣. جمال الدين محمد بن مكرم(ابن منظور الإفريقي)-لسان العرب-دار صادر-بيروت-ط١ - ٢٠٠٠ م .

١٥. جوزيف ميشال شريم - دليل الدراسات الأسلوبية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - ط ١ - ١٤٠٤هـ م / ١٩٨٤ م .
١٦. جون كوين - بناء لغة الشعر - ترجمة وتقديم / د أحمد درويش - دار المعارف - القاهرة - ط ٣ - ١٩٩٣ .
١٧. رمان سلدن - النظرية الأدبية المعاصرة - ترجمة د. جابر عصفور - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة .
١٨. رجاء عيد - البحث الأسلوبي: تراث و معاصرة - نشر منشأة المعارف بالإسكندرية - ط ١ - ١٩٩٣ م .
١٩. رمضان عبد التواب - فصول في فقه العربية - مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض - ط ٢ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م .
٢٠. الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر) - أساس البلاغة - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م .
٢١. الزمخشري - الكاشف عن حقائق الترتيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م .
٢٢. سعد أبو الرضا - في البينة والدلالة : رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية - منشأة المعارف - الإسكندرية - د.ت .
٢٣. سعد الدين التفتازاني (مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني) - شرح السعد المسمى مختصر المعاني في علوم البلاغة - تح/محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة محمد علي صبيح - وأولاده - القاهرة - د.ت .
٢٤. سعد مصلوح - الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية - دار البحوث العلمية - الكويت - ومطبعة حسان بالقاهرة - ط ١ - د . ت .
٢٥. سعد مصلوح - في النص الأدبي : دراسة أسلوبية إحصائية - عين للدراسات والبحوث الإنشائية والاجتماعية - القاهرة - ط ١ - ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م .
٢٦. شكري عياد - مدخل إلى علم الأسلوب - دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ط ١ - ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
٢٧. شوقي ضيف - البلاغة وتطوير وتاريخ - دار المعارف - القاهرة - ط ٨ - د.ت .

٢٨. صلاح فضل-علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط ٢ - ١٩٩٥ م
٢٩. عبد الحليم محمود-دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ- كتاب الشعب- ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٣٠. عبد العزيز حمودة - المرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - العدد (٢٧٢) - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
٣١. عبد العزيز عتيق-في تاريخ البلاغة العربية-دار النهضة العربية للطباعة و النشر - بيروت - د. ت.
٣٢. عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة في علم البيان- تعليق محمد رشيد رضا- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١ - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م
٣٣. عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - قرأه و علق عليه /محمود محمد شاكر - طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة ، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٠م.
٣٤. عبد الله الغدامي-الخطيئة والتكفير : من البنيوية إلى التشريحية -الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط٤-١٩٨٨.
٣٥. العجلوني-كشف الخفاء - طبع مكتبة التراث .
٣٦. عدنان حسين قاسم -الاتجاه الأسلوبى البنىوي فى نقد الشعر العربى - الدار العربية للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .
٣٧. عدنان بن ذريل-النصّ والأسلوبية: بين النظرية والتطبيق-من منشورات اتحاد الكتاب العرب-سورية- ٢٠٠٠م. والكتاب منشور في موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
- www.awu-dam.com
٣٨. علي عبد المعطي محمد-الإبداع وتذوق الفنون الجميلة-دار المعرفة الجامعية-الإسكندرية - ١٩٩٥م.
٣٩. فتح الله سليمان - الأسلوبية:مدخل نظري ودراسة تطبيقية - الدار الفينة للنشر و التوزيع .
٤٠. القاضي عياض. الشفا. مكتبة الفارابي .
٤١. محمد زغلول سلام -تاريخ النقد الأدبي والبلاغة - منشأة المعارف بالإسكندرية - ١٩٨٢م.
٤٢. محمد العبد-اللغة العربية والإبداع الأدبي-دار الفكر للدراسات والنشر-القاهرة-ط١- ١٩٨٩.

٤٣. محمد العبد- اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة : بحث في النظرية - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة- ط ١ - ١٩٩٠ م .
٤٤. محمد عبد المطلب- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم- الشركة المصرية العالمية للنشر و التوزيع - لوجمان - ط ١ - ١٩٩٥ م .
٤٥. محمد بن علي الشوكاني- الفوائد المجموعة - مكتبة السنة المحمدية .
٤٦. محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث - دار العودة - بيروت - ١٩٨٧ م
٤٧. محمد مندور - النقد المنهجي عند العرب - دار النهضة مصر - القاهرة- د. ت.
٤٨. محمود الطحان- تيسير مصطلح الحديث- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض- ط ٩ - ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م
٤٩. محمود فهمي حجازي- في فلسفة اللغة- دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت- ١٩٨٥/٥١٤٠٥ م .
٥٠. مصطفى سويف- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة- دار المعارف- القاهرة- ط ٢ - ١٩٥٩ م.
٥١. مصطفى صادق الرافعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -مكتبة مصر-د. ت .
٥٢. مصطفى ناصف - نظرية المعنى في النقد العربي - دار الأندلس- د. ت .
٥٣. والتر. ج . أونج - الشفاهية والكتابية- ترجمة /د . حسن البنا عز الدين - مراجعة /د. محمد عصفور -عالم المعرفة - الكويت - العدد (١٢٨) - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م